

الرحلة إلى إفريقيا

محاضرات وفناوي العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله
في رحلته إلى إفريقيا



حاشا ليدن عثمان الشنقيطي

الرحلة إلى إفريقيّة

(محاضرات وفتاوى العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ)

في رحلته إلى إفريقية

جميع الحقوق محفوظة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد سافر الشيخ العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار الشنقيطي الجكني رَحِمَهُ اللهُ المولود سنة (١٣٢٥هـ) من بلاده لسبع مضيئين من جمادى الآخرة، من سنة (١٣٦٧هـ) قاصداً بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ثم زيارة مسجد رسول الله ﷺ وبعدها يرجع إلى بلاده، ولكن الله شاء للشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن يستقر في المدينة النبوية ويقوم دروساً حافلة في المسجد النبوي وغيره، فانتفع منه القاصي والداني، وبعد تمام ثماني عشرة سنة كاملة^(١) توجه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على رأس وفد يتألف من أربعة أفراد (ثلاثة من الجامعة الإسلامية وواحد من رابطة العالم الإسلامي) موفدين من الجامعة والرابطة.

أعضاء الوفد:

١ - العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ رئيساً.

٢ - الشيخ عطية محمد سالم عضواً.

٣ - الشيخ محمد أمان الإثيوبي عضواً.

(١) كما صرح بذلك الشيخ عطية رَحِمَهُ اللهُ في كلمة للإذاعة الموريتانية، وهي ضمن محتويات الشريط السابع من أشرطة هذه الرحلة. كما جاء في تأريخ بعض اللقاءات بأنها كانت في اليوم الثامن من شهر جمادى الآخرة، وبعضها قبل ذلك. وهذا يعني أن تلك الرحلة كانت سنة (١٣٨٥هـ).

(وهؤلاء الثلاثة من الجامعة الإسلامية).

٤ - سيدي الأمين المامي الجكني عضواً.

من الرابطة.

الدول التي زارها الوفد:

توجه الوفد إلى تسع دول إفريقية، وهي: السودان، نيجيريا، الداھومي^(١)، النيجر، مالي، السنغال، موريتانيا، فولتا العليا، تشاد.

أهداف الوفد:

يمكن حصر الأهداف التي سافر الوفد من أجلها في ثلاثة أمور^(٢)، وهي:

١ - تقوية أواصر الرابطة الإيمانية بين المسلمين.

٢ - بث الوعي بين أبناء المسلمين في تلك البلاد.

٣ - التعرف على أحوال المسلمين.

الحفاوة التي قوبل بها الوفد:

لعل من أبرز ما يُلفت انتباه المستمع لأشرطة هذه الرحلة هو تلك البهجة الغامرة التي عبر عنها العلماء والأدباء والشعراء بكلماتهم وقصائدهم، إضافة إلى ما يصفه الشيخ عطية رحمته الله من تجمهر الناس وحضورهم محاضرات الشيخ الأمين رحمته الله، وقد التقى أعضاء الوفد بالعلماء، والقضاة، ورئيس الدولة، وعدد من الوزراء، كما شكّل وفد في موريتانيا لمرافقة الوفد في تنقلاته في البلاد شرقها وشمالها.

(١) هكذا سماها الشيخ عطية رحمته الله.

(٢) وذلك بناء على ما صرح به الشيخ عطية رحمته الله في عدد من المناسبات في تلك الرحلة كما هو مسجل في الأشرطة.

القدر الذي وصلنا عبر التسجيل الصوتي مما أُلقي في هذه الرحلة:

إن مجموع ما وصل إلينا من الأشرطة المسجلة في هذه الرحلة عشرة أشرطة فحسب، وهو عدد قليل إذا تذكرنا أن الوفد قد زار تسع دول، إضافة إلى إحدى عشرة عاصمة من عواصم المديریات في شمال وشرق موريتانيا^(١).

توصيف محتويات الأشرطة:

يمكن أن أُلخص مضمون هذه الأشرطة في الأمور الآتية:

- ١ - كلمات ومحاضرات للشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ.
- ٢ - أجوبة على سؤالات وُجِّهت للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ.
- ٣ - محاضرات (قليلة) لبعض أعضاء الوفد.
- ٤ - كلمات ترحيبية وقصائد قيلت في بعض المناسبات التي قوبل فيها الوفد.
- ٥ - ما يصاحب ذلك غالباً من كلام للشيخ عطية رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ يصف المقام والمناسبة، أو يُعرِّف بالوفد، أو يبين مهمته أو غير ذلك مما يتصل بالجانب الإعلامي.

وأما على سبيل التفصيل فعلى النحو الآتي:

الشريط الأول: محاضرة للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ فسر فيها الآيات (٢١ - ٢٤) من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ - إلى قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

(١) قام الوفد برحلتين في موريتانيا ابتداء من العاصمة وانتهاء إليها، الأولى: إلى شرق البلاد، وقد شملت: العيون، والنعمة، والمجرية، وكيفه، وقرو، وكيهيدي، وألاق، وأبو تلميت. والثانية إلى شمال البلاد وقد شملت: نواذيب، وزويرات، وأطار.

الشريط الثاني: كلمات ترحيبية، إضافة إلى سؤالات وُجّهت للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا ثم أجاب عنها.

الشريط الثالث: كلمة افتتاحية، وأسئلة وُجّهت للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا وأجاب عنها إضافة إلى بعض المداخلات والكلام للشيخ عطية رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا.

الشريط الرابع: كلمة أو محاضرة للشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا اشتملت على ثلاثة محاور:

الأول: بيان المعتقد الصحيح في آيات الصفات.

الثاني: بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية.

الثالث: بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

بعد ذلك وُجّهت بعض الأسئلة للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا وأجاب عنها.

الشريط الخامس: محاضرة لأحد أعضاء الوفد.

الشريط السادس: محاضرة للشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا في موضوع الرابطة الإيمانية، وهي مترجمة إلى اللغة الهوساوية.

الشريط السابع: ويتضمن:

١ - بعض كلمة أو محاضرة للشيخ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا يبين فيها أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

٢ - كلمة موجهة للنساء يبين فيها تكريم الإسلام للمرأة، إضافة إلى كلمة للشيخ عطية رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا.

الشريط الثامن: محاضرة للشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا تتضمن ستة محاور:

١ - الاعتقاد الصحيح في نصوص الصفات.

٢ - مفهوم لا إله إلا الله.

٣ - بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين .

٤ - بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية .

٥ - بيان أن الإسلام ينظم جميع شؤون الحياة .

٦ - الكلام على الرابطة الإيمانية .

الشريط التاسع: مكرر مع الشريط الأول .

الشريط العاشر: كلمة أو محاضرة للشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ فِيهِ في موضوع الرابطة الإيمانية ألقاها في مالي (مترجمة) . إضافة إلى بعض الكلمات الأخرى لغيره .

عملنا في هذه المادة:

١ - عهدت إلى بعض طلبة العلم فقاموا مشكورين بتفريغ محتويات الأشرطة .

٢ - بعد مراجعة ما تمت كتابته ومقابلة ذلك بالأشرطة المسجلة اقتصرنا على المحاضرات والكلمات والفتاوى التي صدرت من الشيخ الأمين رَحْمَةُ اللهِ فِيهِ دون غيرها؛ ذلك أن الهدف من إخراج هذه الرحلة إنما هو إدخالها ضمن الفهرس الشامل لجميع آثار الشيخ العلمية .

٣ - خرجت الأحاديث الواردة في هذه المحتويات وعزوت الأبيات والشواهد الشعرية، ولم أتبع جميع المسائل العلمية من جهة التوثيق من المصادر كما فعلت في دروس الشيخ رَحْمَةُ اللهِ فِيهِ في التفسير الذي ألقاه في المسجد النبوي، وذلك لأن عامة المسائل المذكورة في هذه الرحلة موجودة ضمن التفسير المشار إليه وقد وثقتها هناك، ويمكن الرجوع إليها عن طريق الفهرس المشار إليه .

٤ - جعلت كل محاضرة على حدة، وأشارت في الحاشية إلى الشريط الذي

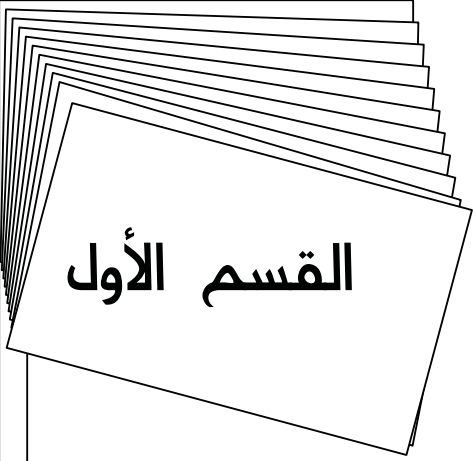
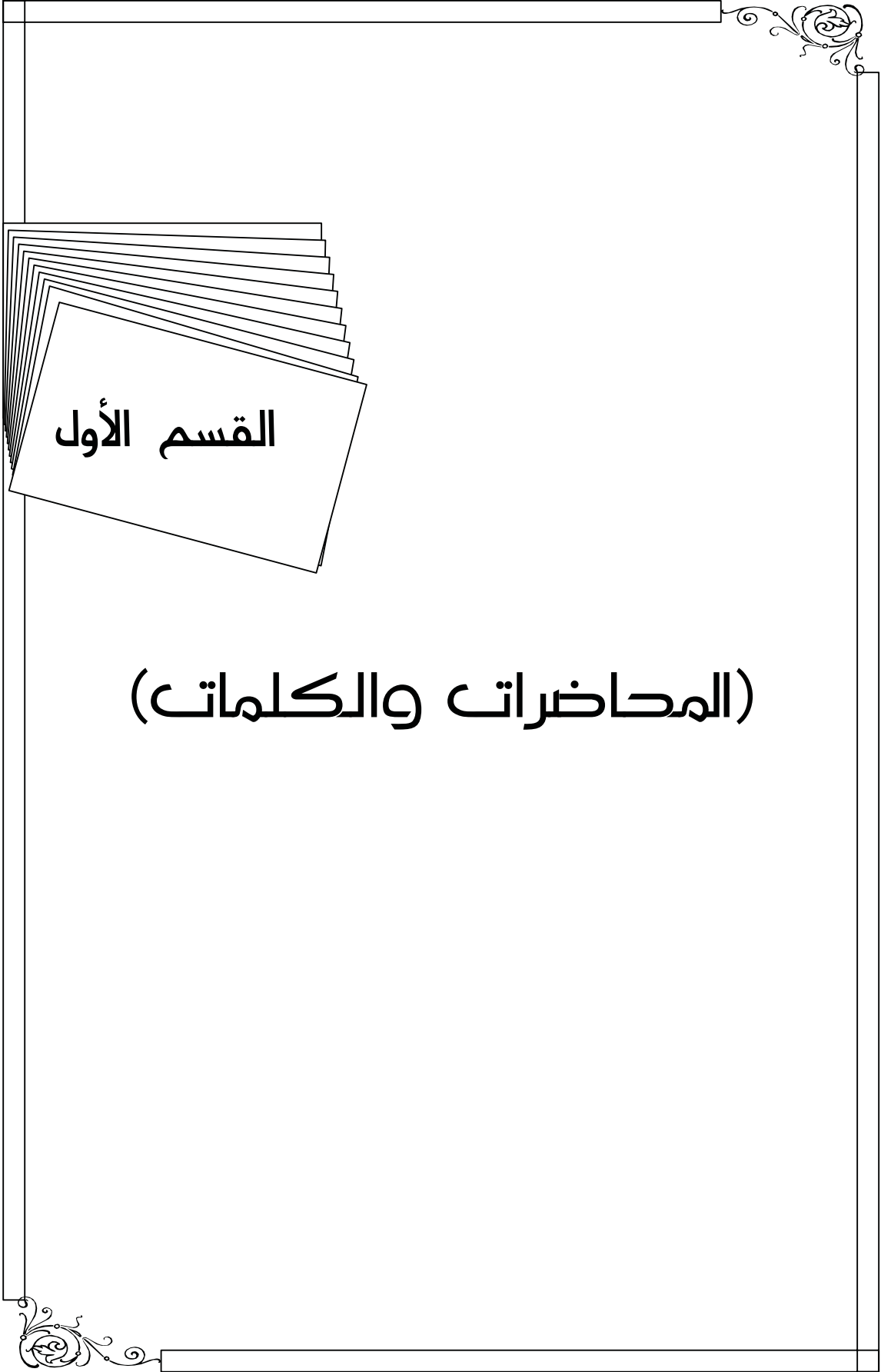
وُجِدَتْ فِيهِ، أَمَا السُّؤَالَاتُ فَقَدْ جَمَعْتَهَا مَعَ أَجْوِبَتِهَا وَجَعَلْتَهَا مَتَسَلْسَلَةً تَالِيَةً لِلْمَحَاضِرَاتِ، كَمَا أَشْرَتْ فِي الْحَاشِيَةِ إِلَى مَوَاضِعِ وَجُودِهَا مِنَ الْأَشْرَطَةِ، وَجَعَلْتَ لَهَا تَرْقِيمًا مَتَسَلْسَلًا، وَصَدَرَتْ الْإِجَابَةُ بِ (الْجَوَابِ). وَلَمْ أَلْتَزِمْ كِتَابَةَ نَصِّ السُّؤَالِ حَرْفِيًّا، بَلْ قَدْ أَخْتَصَرْتُ فِيهِ بَعْضَ الشَّيْءِ إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ.

٥ - أَثَبْتُ كَلَامَ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ بِنَصِّهِ، وَإِذَا وُجِدَ مَسْحٌ أَوْ انْقِطَاعٌ فِي التَّسْجِيلِ أَوْ جُمْلَةٌ أَوْ كَلِمَةٌ غَيْرُ وَاضِحَةٍ فَإِنِّي أَجْعَلُ مَكَانَ ذَلِكَ نَقْطًا مَعَ الْإِشَارَةِ فِي الْحَاشِيَةِ، وَلرَبْمَا أَثَبْتُ زِيَادَةً يَتِمُّ بِهَا الْمَعْنَى وَأَجْعَلُهَا بَيْنَ مَعْقُوفَيْنِ مَعَ الْإِشَارَةِ لِذَلِكَ فِي الْحَاشِيَةِ، كَمَا حَذَفْتُ الْكَلِمَاتِ الزَّائِدَةَ الَّتِي تَجْرِي عَلَى لِسَانِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ فِي ثَنَائِ الْكَلَامِ، كَقَوْلِهِ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ: «مِثْلًا»، وَكَذَا بَعْضَ الْعِبَارَاتِ الْمَكْرُورَةِ.

هَذَا وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَ الشَّيْخَ وَيُعَلِّي دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْ يَجْزِي خَيْرَ الْجَزَاءِ كُلِّ مَنْ أَعَانَ عَلَى إِخْرَاجِ هَذَا الْعَمَلِ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

تَمَّ الْفِرَاقُ مِنْ مَرَاجَعَتِهِ لَيْلَةَ الْأَوَّلِ مِنْ مُحْرَمٍ مِنْ عَامِ (١٤٢٤هـ).

وَكَتَبَهُ: خَالِدُ بْنُ عَثْمَانَ السَّبِيتُ



(المحاضرات والكلمات)



تفسير الآيات (٢١ - ٢٤) من سورة البقرة



(١) / أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَأْتِيهَا
النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا
عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٤].

تلونا عليكم هذه الآية الكريمة من أول سورة البقرة وإن كان الكلام
عليها لا يسعه يوم ولا بعض يوم، إلا أنا نريد أن نذكر حولها نماذج
يستبين بها الناس بعضاً من أضواء القرآن.

أولاً: ننبه إخواننا على فضل القرآن العظيم لأن فيه جميع خير الدنيا
والآخرة، فعلينا جميعاً أن نتدارسه ونتعلمه حتى نعتقد عقائده، ونحل
حلاله، ونحرّم حرامه، ونتأدب بآدابه، وننزجر بزواجره، ونتربى بما فيه من
مكارم الأخلاق، وأن نتعظ بما فيه من العبر والمواعظ والأمثال وقصص
الأمم الماضية.

الله - جل وعلا - في هذه السورة الكريمة - التي تلونا منها هذه
الآيات - التي هي سنام القرآن، السورة العظيمة التي بين الله - جل وعلا -
فيها ومهدّ فيها جميع دين الإسلام، ذكر فيها أخبار الأمم الماضين،
وأخبار الجنة والنار، وأقام فيها براهين العقائد، ومناظرة الخصوم، وذكر
فيها دعائم الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج، وذكر فيها العمرة، وأكل

(١) من الشريط الأول.

الحلال، والأحوال الشخصية من نكاح وطلاق وُخْلَع، والمعاملات كالديون والرقيات والوثائق والشهادات والرهن وما جرى مجرى ذلك.

نلفت أنظار إخواننا إلى الترتيب الغريب العجيب الذي فعله الله في هذه السورة: أولاً ابتداءً الله هذه السورة الكريمة بحروف مقطعة ﴿الر﴾ وهذه الحروف المقطعة لا شك أنها تُلَفَت نظر السامع إلى ما يُتَكَلَّم به بعدها وتجعله متعطشاً عليه. والآن ليس مرادنا الكلام على الحروف المقطعة لأنه كلام يستغرق الوقت كله، ولكن لما ذكر الله هذه الحروف المقطعة وابتدأ بها هذه السورة العظيمة قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فبيّن أن هذا الكتاب المشتمل على خير الدنيا والآخرة الذي هو النور المبين، والحبل المتين الذي أوضح الله به العقائد والحلال والحرام وجميع خير الدنيا والآخرة لا تتطرقه الرّيب ولا الشكوك؛ لأن معجزته أوضح من أن يتطرق إليه شك.

ومعروف أن للسائل أن يقول: كيف يقول: «لا ريب فيه» بـ«لا» التي لنفي الجنس، مع أن قوماً ارتابوا فيه وحصل منهم ريب، كقوله في قوم: ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]؟

ونحن نقول الجواب: أن القرآن بالغ من كمال المعجزة وإيضاح المعجزة ما لا تتطرقه الرّيب ولا الشكوك، وإنما ارتاب فيه المرتابون لعمى بصائرهم كما نص الله على ذلك في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

فصرح بأن من لم يعلم أنه الحق إنما منعه من ذلك عماه، ومعلوم أن عدم رؤية الأعمى للشمس لا تقدح من كون الشمس لا ريب فيها.

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر^(١)

(١) البيت أورده الشيخ رَحِمَهُ اللهُ فِي دفع إيهام الاضطراب ص٧، وهو في العذب النمير عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام ص٦٣٩.

ثم بعد أن بين أن هذا القرآن لا ريب فيه جعل جميع الأمة التي أنزل إليها هذا المحكم المنزل ثلاث طوائف:

جميع الأمة التي أنزل إليها هذا المحكم المنزل الذي هو مفتاح الجنة ومفتاح النار، لا يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل بهذا القرآن، ولا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه، قال جل وعلا في المعرضين عنه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي كائناً ما كان ﴿فَأَلْتَأُرُّ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، وقال جل وعلا فيمن أورثوه وعملوا به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٢]، فبين أن إيراثه علامة الاصطفاء، ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ثم بين أن هذا القرآن هو أعظم نعمة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ثم جاء بوعده الصادق: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣]، الواو في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شاملة للأصناف الثلاثة وعلى رأسهم الظالم لنفسه، وكان بعض العلماء يقول: «حُقَّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين»^(١) لأن واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فيها وعد صادق بالجنة للجميع وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وكان بعض العلماء يقول: «ما الحكمة في تقديم الظالم لنفسه قبل السابق والمقتصد، والله حكيم لا يقدم إلا لنكتة تستوجب التقديم»؟!^(٢).

(١) انظر: الأضواء (٦/١٦٥)، العذب النмир (تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة).

(٢) انظر: القرطبي (١٤/٣٤٩)، الأضواء (٦/١٦٥)، العذب النмир (تفسير الآية ٤٧ من سورة البقرة).

كان بعض العلماء يقول: هذا مقام إظهار الكرم، فقدّم الظالم لثلا يقنط، وأخر السابق بالخيرات لثلا يعجب بعمله فيحبط.

وكان بعض العلماء يقول: أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. فبدأ بهم لأكثرتهم.

الشاهد أن الله بين في آيات البقرة التي تلونها أن الأمة بالنسبة إلى هذا الكتاب المنزل الذي هو أعظم نعمة أنزلها الله من السماء إلى الأرض وعلمنا أن نحمده على إنزالها في غير ما آية، كقوله في أول سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني، فالفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات، ومعانيه كلها في غاية الكمال، أخباره صدق، وأحكامه عدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، بين أن الأمة بالنسبة إليه ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منها: طائفة آمنت به ظاهراً وباطناً، وأبصرت هذا النور، فاهتدت بهذا النور، واتصلت على ضوئه بخالق الكون، فرأت الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً والضار ضاراً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً. قال في هذه الطائفة: ﴿هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٤]. ثم أثنى عليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

ثم بين أن هناك طائفة أخرى من الطوائف الثلاث بالنسبة إلى هذا القرآن الذي لا ريب فيه أنها طائفة - والعياذ بالله - كفرت به ظاهراً

وباطناً، قال فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴿٧﴾ [البقرة: ٦، ٧] وهذه الطائفة - والعياذ بالله - إنما عميت عن أنوار القرآن لأنها خفافيش البصائر، والخفاش لا يرى الشمس.

خفافيش أعمها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم^(١)
مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمي أعين الخفاش^(٢)

كما بينا كما في قوله في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

والطائفة الثالثة: - وهي أخس الطوائف - هي طائفة آمنت به ظاهراً وكفرت به باطناً فكانت من المذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهي طائفة المنافقين، وهي أخس الطوائف، ذكرها الله في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وأطال في كلامه في هذه الطائفة لأنها أخس الطوائف، فضرب لها الأمثال بمثل النار ومثل الماء ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ومثل الماء في قوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]. ولا يسعنا المقام في أن نتكلم على المثليين لأنه يستغرق وقتاً طويلاً. والشاهد أن الله لما نوه بهذا القرآن العظيم، وبين أنه الكتاب الأعظم الذي لا ريب فيه، وبين أن الناس بالنسبة إليه ثلاث طوائف:

(١) البيت لابن الرومي، وهو في ديوانه (١٥٧/١)، تحقيق حسين نصار، ولفظه هناك:

خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولاحمها قطع من الليل غيب

(٢) البيت في المغني لابن قدامة (٣٢٣/١٣)، حياة الحيوان للدميري (٢٩٦/١)، صبح الأعشى (٨٨/٢)، الأضواء (٢٧٤/٢).

طائفة طيبة، وطائفتان خبيثتان، ليس المقصود من القرآن في تقسيم هذه الطوائف مجرد تاريخ ولا إخبار، بل مجرد وعظ وإرشاد ليعلم خلقه ويبيّن لهم أنهم يجب عليهم أن يُسارعوا إلى أن يكونوا من الطائفة الطيبة، ويتباعدوا كل التباعد من الطائفتين، المقصود تنبيه المسلمين على أن يكونوا من المتقين الذين يؤمنون بالغيب ومما رزقناهم ينفقون، وأن يتباعدوا كل التباعد أن يكونوا من طائفة الكافرين أو طائفة المنافقين.

لا شك أن المسلم إذا علم هذا التقسيم من خالق الكون - جل وعلا - أنه يتشوّف بتعطش إلى الطريق التي يجتنب بها الكينونة مع الطائفتين الخبيثتين، والصيرورة مع الطائفة الطيبة، لا شك في هذا؛ لأجل هذا أتبع الله هذا التقسيم بإيضاح كلمتين عليهما مدار خير الدنيا والآخرة، وجميع الهدى، والصلة الكاملة بمن رفع هذه السماء ودحا هذه الأرض، وفتح هذه العيون في أوجهكم، ففرق أصابعكم وشدّ رؤوسها بالأظفار وأنتم في بطون أمهاتكم من غير أن يحتاج أن يشقها ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]. هاتان الكلمتان هما: (لا إله إلا الله محمد رسول الله). فبدأ بالكلمة الأولى التي هي (لا إله إلا الله) وبينها لأنها مركبة من نفي وإثبات، (لا إله) نفي، (إلا الله) إثبات. ومعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، ومعنى إثباتها: أفراد خالق هذا الكون - جل وعلا - بالعبادة. وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته^(١):

تُبَارِي عَتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعْتُ وَظِيْفًا وَظِيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُّعَبَّدٍ

أي: مذلل لدوس الأقدام والأرجل.

أما العبادة في اصطلاح الشرع فهي: التقرب إلى خالق هذا الكون

(١) شرح القوائد المشهورات (٦٠/١).

بما أمر أن يُتقرب له به على الوجه الشرعي على لسان محمد ﷺ مع الخضوع والذل والمحبة، فلا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، ولا المحبة دون الذل والخضوع، لأن المحبة إن لم يكن معها خوف كان صاحبها في إذلال وجراءة، فقد يقع في المقام الإلهي بما لا ينبغي إدلالاً بالحب وأمناً من عدم الخوف، والخوف إذا كان منفرداً عن المحبة كان صاحبه مُبغضاً. وهذا كله لا يليق، لا بد من ذل وخضوع من جهة، ومن محبة من جهة أخرى.

هذه الكلمة التي بينا معناها جاء الله بإثباتها منفردة في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وجاء في نفيها في حدة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وكان أول أمر في المصحف الكريم - إذا نظرت المصحف الكريم أول أمر فيه على الترتيب الذي هو عليه - قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا﴾ [البقرة: ٢١] في هذه الآية التي تلونا من أول سورة البقرة. وأول نهي فيه قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. فأول نهي في المصحف يتضمن حظ الإثبات من: (لا إله إلا الله). وأول نهي منه يتضمن حظ النفي من: (لا إله إلا الله). ثم إن الله لما بين هذه الكلمة الأولى وأوضحها جاء ببراهينها: بين تفسير جزأها، ثم ضمنها براهين البعث، وستكلم على هذا ونوضحه الآن، ثم بعد ذلك أقام برهان (محمد رسول الله) بعد أن بين (لا إله إلا الله) وبراهينها العقلية المضمنة براهين البعث أتبع ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وهذا برهان الإعجاز؛ لأن إعجاز جميع الخلائق عن أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن برهان قاطع على أنه تنزيل رب العالمين، إذ لو كان من كلام البشر لقدرة البشر على محاكاته؛ ولذا لما قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ قال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] لنفي المستقبل علق ونفى الشرط المعلق عليه ليدل على أن المشروط لا يأتي أبداً، ولذا قال:

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ لا يمكن أن تفعلوا، وهذا التعليق والنفى أسلوب بليغ من كلام العرب، ونظيره من كلام العرب قول الخنساء الشاعرة السُّلمية: (١)

هريقي من دموعك واستفيقي وصبراً إن أطقتِ ولن تُطريقي
ولذا لما قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا﴾ قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤] يعني: فاعلموا أن حجة الله وبرهانه قام عليكم بصدق هذا النبي الكريم، وأن هذا المحكم المنزل كلام رب العالمين - جل وعلا - وقد تحداهم هنا بسورة منه قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ثم تحداهم في سورة يونس بسورة أيضاً قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨] ثم تحداهم في سورة هود بعشر سور قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]. ثم قال: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا﴾ [هود: ١٤] أي: فتيقنوا علماً يقيناً ﴿أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤] ثم تحداهم في سورة الطور به كله قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]. ثم بين في سورة بني إسرائيل - سورة الإسراء - أن جميع الخلائق عاجزون عن الإتيان بمثله قال: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] هذا برهان إعجاز ذكرنا منه نموذجاً خفيفاً ليستدل به السامع على غيره.

ثم أرجع إلى بيان براهين (لا إله إلا الله) فالمشركون يقولون: كيف تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌّ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥] ما البرهان على وحدانية هذا الإله الذي رفع هذا

(١) ديوان الخنساء (ص ١٠٣).

الكون؟ هذا البرهان كرره الله في هذه السورة الكريمة تكريراً كثيراً منه ما قال: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

ثم اتبع هذا بالأدلة العقلية في هذه السورة حيث قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]. وهنا قال: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، يعني: من أعظم براهين عبادة الله وحده أنه خلقنا واخترعنا من العدم إلى الوجود، وخلقنا لنا من غرائب وعجائب صنعه كما نبين منه نموذجاً قليلاً هنا: أولاً: الله في القرآن يجعل الفرق والعلامة الفارقة بين من يستحق أن يُعبد ومن لا يستحق أن يُعبد هي الإبراز والاختراع والإبداء من العدم إلى الوجود، فمن يخترعك ويبرزك من العدم إلى الوجود عليك أن تعبده، ومن لا يخلقك فهو محتاج إلى خالق - مثلك - فأنت وهو ملزمان بأن تعبدا من خلقكما، ولذا قال هنا: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] لا والله ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] وخالق كل شيء هو معبود كل شيء، وهذه الحالة التي خلقنا عليها خالق الكون هي من غرائب وعجائب صنع من خلقنا، وقد أمرنا أمراً واجباً على كل إنسان منا أن ينظر فيها ويتأمل حيث قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥] هذا أمر واجب من خالق الكون؛ لأن المقرر في علوم المعاني وعلوم الأصول: أن صيغ الأمر الأربعة تدل على الوجوب حتماً إلا إذا صرف عنه صارف، وهذا هو الحق. وصيغ الأمر الدالة على الوجوب في اللغة العربية معلوم أنها أربع صيغ: أولها: فعل الأمر، نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الثاني: الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]

الثالث: اسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ﴾. الرابع: المصدر النائب عن فعله نحو: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] (فضرب الرقاب) يعني: ا ضربوا رقابهم. هذه صيغ الأمر. وصيغة الأمر هنا في ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ هي تقتضي الوجوب الحتم، ﴿مِمَّ خُلق﴾؟ والإنسان له رحلة يجب على المسكين أن يتأملها وينظر فيها ليعلم قدره ويعلم عظمة من خلقه، أمر الله بالنظر فيها في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلق﴾ [الطارق: ٥] وبين للخلق ما خلقهم منه قال: ﴿كَلَّا إِنَّآ خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩] ترى اللي خلقناكم منه هو اللي تعرفونه.

وقد أوضح الله - تعالى - رحلة الإنسان إيضاحاً يُعرِّف الإنسان بنفسه ويُعرِّفه بربه، ذلك الإيضاح في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. وذلك أن هذا الإنسان الذي يطغى ويبغي ويغزو الفضاء ويحاول يتمرد على نظام السماء ويعصي من خلق هذا الكون، ابتداء رحلته تراب وماء، أخذ الله تراباً قبله بماء فصار اسمه طيناً، ثم إن الله نقل هذا الطين من طور إلى طور حُمّر حتى صار حمأ مسنوناً، ويُبس حتى صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق الله بقدرته منه رجلاً لحمأ ودماً هو الأب آدم عليه صلوات الله وسلامه، فلما خلق هذا الإنسان من هذا التراب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران: ٥٩]. لما خلق هذا الإنسان من هذا التراب خلق امرأته من ضلعه، وقد نص الله تعالى على أنه خلق حواء من آدم في ثلاث سور من كتابه: في أول سورة النساء في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنثَىٰ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] النفس: آدم، وزوجها التي خلقت منه: حواء. وقال في سورة الأعراف: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقال في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] ثم بعد أن صار هناك زوجان رجل وامرأة كان الطور الثاني للآدميين هي نطفة مني تقع في رحم المرأة ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]

أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، ثم تمكث هذه النطفة في الرحم ما شاء الله ثم ينقلها الله - جل وعلا - علقه، أي: دماً جامداً، ثم ينقل الله هذا الدم إلى مضغة - قطعة لحم على نحو ما يقطعه أكل اللحم ليمضغه - ثم إن الله يحول هذا اللحم إلى هيكل عظام يركب فيه هذه العظام بعضها ببعض، هذه السُّلَامِيَّات، وهذا البنان، وهذه المفاصل يُرَكَّب بعضها ببعض هذا التركيب الدقيق والصنع الهائل العجيب في كل عضو منا، وهذا الذي ركبه ليس بأخرق كما قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨] الأسر: يعني الشد كما تقول للمرأة: «أَسْرَتْ أَخْطِيرَهَا»^(١) - يقولون بالحسانية - ومعناه: يعني ضم الشيء إلى الشيء وشده به شداً محكماً ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ لو كان الذي شد اليد بالساعد والساعد بالمرفق والبنانة بالبنانة لو كان أخرقاً إذا تحرك الإنسان سقطت يده، أو سقط مرفقه، أو طاح رجله، بل الذي يشدها يشده شداً محكماً، ثم إن الله - جل وعلا - يكسو هذا الجسم هذا اللحم ويجعل فيه هذا الدم، ويُجري مجاري البول والغائط يفتحها التنزل عنها الفضلات، ويفتح مجاري العروق والشرايين ليدير الدم، ويضع كل عضو في محله كالكبد والطحال والكليتين، ويؤكل كلاً بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح هاتين العينين، ويجعل فيهما هذا النور، ويصبغ بعض العينين بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويفتح هذا الفم ويجعل فيه اللسان، ويودعه هذه الفصاحة، ويُنبع عين الريق العذبة ليأكل بها الإنسان، إذ لو يبس ريقه لما ابتلع الزبد الذائب، ثم إنه إذا لم تكن له حاجة في الريق لم يجم لئلا يتعبه التفل [..] ^(٢) يعني جُعِلت له الأذنان ليسمع، وجعل على هذا التركيب الغريب الهائل [وجعل على هذه الهيئة بطنه، وشهدت] ^(٣) العينان حول البطن، والظهر الذي ليس

(١) أي: شدَّت اليهودج أو ما يشبهه مما يوضع على البعير تركبه المرأة.

(٢) في هذا الموضع جملة غير واضحة، والكلام مستقيم بدونها.

(٣) في الأصل جملة غير واضحة، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

عنده عينان جُعل عظاماً لو ضربه شيء لا يكاد يضر، وجعل في الإنسان من الغرائب والعجائب شيء يبهر العقول، حتى إن ما يحتاج إلى قصه دائماً كشعره وأظافره نُزعت منه روح الحياة لئلا يُتعبه عند القص. هذا من غرائب وعجائب خالق الكون - جل وعلا - خلقنا على هذا النحو الغريب، وصوّر بني آدم على هذه الصورة، جعل الأنف هنا، والعينين هنا، ولم يشتهبه اثنان، طبع كل إنسان على صورة مخالفة لصورة الآخر، وهذه الصورة التي وضع عليها كل واحد هي سابقة في العلم الأزلي، ووضع تنفيذاً على نحو ما سبق به العلم، ولو خُلق ملايين الملايين زائداً على من خُلق لم يضق العلم، فكل واحد توجد له صورة مخالفة لصورة الآخر، حتى آثارهم في الأرض وأصوات نغماتهم وبصماتهم في الأوراق كلها مختلفة، هذه صنائع رب العالمين، وهذه أسرار قليلة من أسرار معنى ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] يعني: فمن فعل فيكم هذا من الأفعال والغرائب والعجائب في كل عضو وكل مطرح إبره هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه. ولا يخفى عليكم أن ربنا فعل فينا هذا من الغرائب والعجائب ونحن في بطون أمهاتنا لم يحتج إلى أن يشق أم الواحد منا، ولا أن ينجها، ولا ينومها في صحية، بل فعل كل هذه العمليات والمرأة لاهية تفرح وتمرح لا تدري عن شيء مما يفعل في داخلها من غرائب صنع الله وعجائبه، ثم يسر طريق الخروج. ونحن دائماً نذكر هذا لأن الله يلفتنا إليه حيث يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ﴿ظُلْمَةُ الْبَطْنِ، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] وهو محل الشاهد، فهذا الذي يفعل هذا الخلق والإيجاد هذا هو الذي يستحق أن يُعبد.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] أي: وخلق الذين من قبلكم. يعني: اعبدوه لأجل أن تتقوه، أي: أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وعذابه وقاية، والوقاية: هي امثال أمر الله واجتناب نهيه.

ثم زاد في البراهين العقلية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ يعني: هذا من غرائب صنعه وعجائب أمره التي تستدعي أن يُعبد وحده ويعلم أنه الرب وحده ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢] وهذا الذي فرش هذه الأرض ليس بأحرق ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] جعلها ليست شديدة الاستعداد في أخذ الحر زمن الحر، ولا لأخذ البرودة زمن البرودة، فلو جعل الأرض كلها من حديد أو من نحاس أو من رصاص أو قصدير هلك كل من عليها، جعلها رخوة لينة يعيش الخلق عليها، قابلة للزراعات، وأنواع الغراسات، وإجراء العيون والأنهار، وبناء البيوت، ومثبتة موطدة بالجبال، تدفن فيها الأموات كما قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] وقوله: ﴿كِفَاتًا﴾ مصدر كفتة إذا ضمّه، أي: تكفتكم وتضمكم أحياء على ظهرها وأمواتاً في القبور في بطنها. وهذه الأرض التي فرشها هذا الفرش بث فيها - جل وعلا - من هذه الجبال وعلى ألوان مختلفة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [الأنعام: ٣٧] ومن الناس والدواب والأنعم مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴿[فاطر: ٢٧، ٢٨] بث فيها من أنواع الحيوانات، والأشجار والثمار وأنواع الحبوب والزرع، والمعادن، والجبال مع اختلاف الألوان والأشكال والمنافع والأقذار والطعوم ﴿وفي الأرض قطع متجورات وجنت من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء وادٍ وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي وجعل هذه السماء بناءً سقفاً مرفوعاً لا يتفطر ولا يتشقق، ولا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح مع أنه تمر عليه آلاف السنين ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الأنعام: ٣] ثم أرجع البصر كرّين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿[الملك: ٣، ٤] أي: فاتراً ذليلاً من عظم ما رأى؛ ولذا قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] إنزال السماء هذا الماء الإنسان - أيضاً - يجب عليه النظر فيه لأن الله يقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ [عبس: ٢٤] ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ واجبة كما ذكرنا في الأولى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ يجب على كل إنسان حتماً أن ينظر إلى طعامه. ومعنى هذا وكأن ربه يقول: أيها الإنسان المسكين الذي تنتنع وتتمرد على نظام السماء انظر الخبز الذي تأكل منه - ولو لم تجده لمت - من هو الذي خلق الماء الذي شرب به وروي حتى نبت، أيمن أن يخلقه غير الله؟ لا، هب أن الماء خلق من يقدر على إنزاله على هذا الطريق والأسلوب الغريب العجيب - رشاش - حتى تروى الأرض من غير أن يضر بها الماء؟ فلو كان مُنزلهً أخرقاً لجعل المطر كله قطعة واحدة فترك البلاد أثراً بعد عين!! ينزله بغاية اللطافة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْقِهِ﴾ [النور: ٤٣] هب أن الله - جل وعلا - خلق الماء وأبدعه بقدرته وإرادته ثم أنزله على هذا الأسلوب الغريب العجيب الهائل ورويت الأرض وشربت من هو الذي يقدر على أن يشق الأرض ويخرج منها بمسمار النبات؟ هب أن مسمار النبات خرج من هو الذي يقدر على أن يخرج منه السنبل؟ هب أن السنبله خرجت من هو الذي يقدر على أن ينبت فيها الحب؟ هب أن الحب خلق من الذي يقدر على أن ينميه وينقله من طور إلى طور حتى يكون تاماً مدركاً صالحاً للأكل؟ ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] ؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ ﴿يعني: عن النبات﴾ ﴿شَقًّا﴾ ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾... ﴿إلخ﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٨] هذا من غرائب وعجائب صنع رب العالمين - جل وعلا - ؛ ولذا قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

فإذا علمتم هذا وعرفتم أن خالق الكون هو الذي رفع هذه السماء، ودحا هذه الأرض، وأبرزكم من العدم إلى الوجود، وأنبت لكم الأرزاق

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾ لا تعادلوا بهذا من لا يقدر على شيء، ولا تصرفوا شيئاً من حقوقه إلى عاجز ضعيف لا يقدر على شيء؛ ولذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] نظراء تصرفون لهم حقوقه في العبادة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الواحد الرب وحده، المحيي المميت، القادر على كل شيء، الذي يستحق أن يُعبد وحده.

ثم إن ربنا في هذه الآية التي تلوت عليكم من سورة البقرة وتكلمت لكم كلاماً قليلاً عليها ضمنها ثلاثة براهين من براهين البعث السائدة في القرآن العظيم؛ لأن المعارك في القرآن بين النبي ﷺ وبين منكري البعث من أعظم المعارك، وإن كانت المعركة العظمى بين الرسل والأمم في عبادة الله وحده، إلا أنهم ينكرون البعث يقولون: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢] ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] كل هذا إنكار منهم للبعث، والله - جل وعلا - أكثر في القرآن العظيم من ثلاثة براهين يقيمها براهين عقلية على أنه يبعث الناس بعد الموت أشار إلى ثلاثة منها في هذه الآية الكريمة التي ذكرناها لكم الآن، وكرر الرابع منها خمس مرات في هذه السورة الكريمة في غير هذه الآية.

أما البراهين الثلاث السائرة في القرآن بكثرة التي أشير إليها هنا:

فالأول منها: هو أنه خلقنا واخترنا ابتداءً، المشار إليه في قوله في الآيات التي تلونا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] يعني: ومن خلقكم أولاً هو قادر على أن يعيدكم ثانية؛ لأن الإعادة أيسر من الاختراع والابتداء، ولو سألت أطرف عاقل في الدنيا: أي الفعلين أصعب: اختراع الفعل وابتدائه أولاً أو إعادته بعد أن فعل مرة أخرى؟ الجواب طبعاً: إعادته بعد الاختراع أسهل من اختراعه وإن كان الله - جل وعلا - لا يصعب عليه شيء؛ ولأجل هذا ترى هذا البرهان كثيراً في القرآن كقوله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴿ الحج: ٥ ﴾ ولا يكون البعث أبداً أصعب من الإيجاد الأول من تراب. وكقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَى﴾ أي الإيجاد الأول ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] أي: من أوجد أولاً قادر على الإيجاد ثانية. وكقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وكقوله جل وعلا: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥] وكيف يلتبس عليكم الخلق الجديد وأنتم تعلمون الخلق الأول؟ ولأجل هذا قال مخاطباً للإنسان: ﴿وَاللَّيْنِ وَالرِّتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ١ - ٤] ثم قال مرتباً على هذا: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾﴾ [التين: ٧] ما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء وقد علمت أنني خلقتك أولاً؟ وهذا البرهان متكرر في القرآن تكرراً كثيراً لا يحصى؛ ولذا نص الله في آيات من كتابه على أنه لا ينكر البعث إلا من نسي الإيجاد الأول كما قال في قوله جل وعلا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] إذ لو تذكر الإيجاد الأول لعلم أن من أوجد أولاً قادر على أن يوجد ثانية، وكقوله جل وعلا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾﴾ أولاً يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَورِثِكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٨] وهذا البرهان كثير في القرآن، وقصدنا التمثيل بآيات متعددة.

البرهان الثاني: هو خلق السموات والأرض المشار إليه في قوله:

﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ يعني ومن خلق هذه الأجرام العظيمة الهائلة فمن المعلوم أنه قادر على إعادة الإنسان الضعيف المسكين؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر قادر بالأولى على أن يخلق الأضعف الأصغر،

وهذا برهان كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] أي: ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر من باب أولى، وكقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] لأن من خلق الأعظم قادر على أن يخلق الأصغر، وكقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩]. وقد ألقمهم حجراً في قوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢] الجواب: هذا الذي فعل في السماء والأرض أشد وأعظم خلقاً، أي: ومن قدر على الأشد الأعظم فمن باب أولى أنه قادر على الأخف الأصغر، وهذا برهان كثير في القرآن، والقصد التمثيل بآيات، وبيان ما اشتملت عليه الآيات من الغرائب والعجائب والإشارات.

الثالث من هذه البراهين: هو إحياء الأرض بعد موتها؛ لأن من أحيا الأرض بعد موتها - تجد الأرض قاحلة ميتة لا نبات فيها مغبرة ثم إن الله ينزل المطر فتجدها حية خضراء ترفل في أحسن الحلل من جميع النباتات، فمن أعاد هذا النبات بعد العدم - قادر على إحياء الإنسان بعد العدم؛ لأن ما جاز على المثل يجوز على مماثله، وهما جرمان كانا معدومين، ومن أوجدهما أولاً أعاد هذا ونحن نشاهد فنعلم أنه قادر على الثاني، وهذا برهان كثير أيضاً في القرآن أشير له بقوله هنا: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] والآيات التي يُشار فيها إلى هذا البرهان على البعث كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩] ومن هذا قوله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]

أي: من قبورهم أحياء كما أخرجنا النبات، وقال جل وعلا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩ - ١١]

أي: كذلك خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت كما أحيينا الأرض بالنبات بعد الموت، وقال جل وعلا: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الروم: ١٧ - ١٩] أي: من قبوركم أحياء بعد الموت، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠] والآيات القرآنية في هذا كثيرة جداً في كتاب الله والقصد التمثيل.

أما البرهان الرابع على البعث الذي لم يذكر في هذه الآية - الذي بينا أنه تكرر في سورة البقرة خمس مرات - فهو: ما جاء في القصص الثابتة في القرآن من أن الله أحيى بعض الأموات في دار الدنيا والناس ينظرون؛ لأن من أحيى نفساً واحدة بعد أن ماتت فهو قادر على إحياء جميع الأنفس لاستوائها ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَوَحْدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] من ذلك من المواضع الخمسة قوله في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦] فمن بعث هؤلاء بعد موتهم كما صرح به في المحكم المنزل قادر على بعث كل إنسان بعد الموت.

الموضع الثاني من المواضع الخمسة: قوله في قتيل بني إسرائيل لما ضربوه ببعض البقرة: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣] كما أحيى هذا الميت وبني إسرائيل ينظرون حتى وقف وأوداجه تشخب دماً وقال: «قتلني فلان» - وهم

ينظرون - من أحيا هذا الميت فهو قادر على إحياء جميع الموتى كما أشار له الله بقوله: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ كما أحيا هذا القليل وهم ينظرون كذلك يحيي الموتى.

الموضع الثالث من هذه المواضع: الألوفا الذين خرجوا خوفاً من الطاعون فأماتهم الله جميعاً ثم أحياهم، المذكورون في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الموضع الرابع: عزيز وحمارة؛ لأنه مكث مائة سنة ميتاً وحمارة متمزق العظام، ثم كان ما قصه الله في قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾. وفي قراءة أخرى^(١): ﴿كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الموضع الخامس: طيور إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ يذكرون في قصة إسرائيلية أن هذه الأربعة: غراب ونسر وديك وطاووس ﴿فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فرق لحومها وريشها ورؤوسها على الجبال ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ فدعاهن فصار الريش يطير إلى الريش، واللحم إلى اللحم، والعظم إلى العظم، والرأس إلى الجثة، حتى جاءت تمشي لا بأس عليها؛ ولذا قال: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (ص ١٥١).

قد ذكرنا من هذه الجُمْل أن الله - جل وعلا - رتب في أول هذه السورة الكريمة هذا الترتيب العجيب ونوّه بشأن هذا القرآن العظيم الذي هو النور المبين وفيه خير الدنيا والآخرة، ثم بين أن الناس بالنسبة إليه ثلاث طوائف:

طائفة آمنت به ظاهراً وباطناً.

وطائفة كفرت به ظاهراً وباطناً.

وطائفة آمنت به ظاهراً وكفرت به باطناً.

وضرب لهذه الأمثال، ثم بين أنه ينبغي للمسلمين أن يكونوا من تلك الطائفة الطيبة ولتجنبوا أن يكونوا من يكونوا الطائفتين الخبيثتين، ثم أشار إلى أن مدار ذلك على تحقيق كلمتين فيهما خير الدنيا والآخرة وعليهما قوام السماء والأرض (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فبين الأولى، وفصل نفيها وإثباتها، وجاء ببراهينها القطعية مضمنة براهين البعث، ثم جاء بالثانية موضحاً إياها ببرهان الإعجاز. هذه العبادة التي أشير إليها هنا هي فروع كثيرة وأنواع منتشرة، وهي طاعة الله في جميع ما أمر به، وجميع ما نهى عنه، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

والقرآن العظيم هو النور والميزان العدل الذي يُعرف به الحق من الباطل، والله يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقد بين لنا القرآن ميزاناً نعرف به أعمالنا ومحكاً ننقد به أعمالنا فنعرف أوزانها هي أم خالصة، أحق هي أم باطل، وقد بين القرآن العظيم أن المسلم إذا أراد أن يعرض عمله على ميزان يعرف به عمله صالح أم طالح أن ذلك الميزان يتركب من ثلاثة أشياء، إذا كانت هذه الثلاثة الأشياء موجودة في ذلك العمل فهو عمل صالح كما ينبغي، وإن اختلف منها واحد فالعمل طالح غير صالح.

الأول من هذه الأمور الثلاثة: هو أن يكون ذلك العمل مطابقاً في ظاهر الأمر لما جاء به سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن الله هو الملك الأعظم الجبار لا يقبل أن يتقرب إليه إلا طبق ما أمر؛ ولذا يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] ﴿قُلْ ءَلِلَّهِ أَذِنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] ﴿وَمَا ءَأَنذَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

الثاني: أن يكون الإنسان فيما بينه وبين ربه في داخل نيته التي لا يطلع عليها إلا الله أن يكون مخلصاً لله في ذلك العمل كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١١، ١٥]. فمن عبد بغير إخلاص جاء بما لم يؤمر به؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

الثالث: أن يكون ذلك العمل مبنياً على أساس العقيدة والتوحيد الصحيح؛ لأن العقيدة كالأساس والعمل كالسقف، فالسقف إذا وجد أساساً ثبت عليه، وإن لم يجد أساساً انهار، والله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ١٢٤] فيقيد بالإيمان، ثم إنه يبين الذين يعملون الصالحات من غير إيمان ويقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ويقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [١٥] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] والعقيدة الصحيحة التي هي الأساس الذي يبنى عليه العمل ضابطها المنطبق على جزئياتها هو الاستضاءة بنور هذا القرآن العظيم؛ لأن العقول مخلوقة قاصرة واقفة عند حدها، والمُعْتَصِمُ الوحيد هو نور القرآن العظيم، فما قاله الله ورسوله وثبت عنهما نقوله، وما لم

يقولاه لم نقله، وما أوجباه نعمل به، وما سكتا عنه نتركه، وما فصل فيه الكتاب والسنة نفصل، وما أجمل فيه نجمل، وما سكتا عنه نسكت، ولا نتكلف ما لا نعلم.

ونحن دائماً نبين في المناسبات أن هنالك مسائل مثلاً كآيات الصفات زلت فيها عقول الناس، وضل قوم بالإفراط وقوم بالتفريط، وقوم شبهوا، وقوم عطلوا، ونحن دائماً ندعوا أنفسنا وإخواننا إلى طريق القرآن والعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي التمسك بكتاب الله، وأن استقراء القرآن دل على أن الطريق الواضح طريق السلامة في ذلك تتركز على ثلاثة أسس كلها في ضوء القرآن العظيم، فمن جاء بها كلها فقد سلك طريق السلف التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه وخلفاؤه الراشدون والقرون المشهود لهم بالخير، ومن أحل بواحد منها فقد أوقع نفسه في مهواة قد لا يتخلص منها. هذه الأسس الثلاثة (...)^(١).



(١) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وتجد الكلام على هذا الموضوع في المحاضرتين (٢، ٤)، إضافة إلى مواضع متعددة من (العذب النمير).



(اشتمال القرآن على خيري الدنيا والآخرة)

ومن ذلك:

- ١ - بيان المعتقد الصحيح في آيات الصفات.
- ٢ - بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية.
- ٣ - بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.

(١) / والآن نقول: إن هذا القرآن العظيم فيه خير الدنيا والآخرة، ولم يضمن الله لأحدٍ ألا يكون ضالاً في الدنيا ولا شقيماً في الآخرة إلا المتمسك بهذا القرآن العظيم ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] وهذا القرآن العظيم بين أن المعتقد المنجي الذي هو طريق سلامة محققة في آيات الصفات يتركز على ثلاثة أسس كلها في ضوء آية من كتاب الله، فمن جاء بهذه الأسس الثلاثة فقد سار في ضوء القرآن العظيم ولقي الله متمسكاً بالعروة الوثقى على المحجة البيضاء التي كان عليها محمد ﷺ وأصحابه، وهو طريق السلف، وقد قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس - رضي الله عنه وأرضاه - وصدق: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها).

أول هذه الأسس الثلاثة - أيها الإخوان - نكرره لكم مرة بعد مرة:
هو الأساس الأكبر، والتوحيد الأعظم، والحجر الأساسي للصلة الصحيحة بخالق هذا الكون، هذا الأساس: هو تنزيه خالق السموات والأرض التنزيه التام عن أن يُشبه شيئاً من خلقه في أي شيء من صفاتهم، أو ذواتهم، أو أفعالهم، وكيف يشبه الخلق خالقه؟ أليس أثراً من آثار قدرته وإرادته؟ وكيف تشبه الصنعة صانعها؟ هذا لا يخطر في الأذهان السليمة من أقدار التشبيه. وهذا الأصل في ضوء قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] وهذا الأصل هو أساس الخير والحجر الأساسي للتوحيد، فمن حققه حسنت صلته بالله، وكان على ثقة صحيحة من عقيدته؛ لأنه هو الأساس الأعظم والطريق الأكبر في هذا الطريق،

(١) من الشريط الرابع..

تنزيه خالق الكون عن مشابهة خلقه في جميع أنواع صفاتهم، وفي جميع أنواع المشابهة، فإذا استولى هذا الأساس على القلب، وطهرت أرضه من أقدار التشبيه، وعظمت رب العالمين كما ينبغي، وعلمت أنه لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه:

فالأساس الثاني من الأسس الثلاثة هو: تصديق الله فيما أثنى به على نفسه، وتصديق رسوله فيما أثنى به على ربه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَوْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: ٣، ٤] ولكن هذا الإيمان والتصديق لصفات الله التي مدح الله بها نفسه أو أثنى عليه بها رسوله - إيماناً مبنياً على أساس التنزيه الكامل - وهذا التعليم الذي قلت لكم الآن في هذين الأساسين لم آت به من تلقاء نفسي، وإنما أخذته من نور المحكم المنزل؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فإتيانه بـ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه سر أكبر، ومغزى أعظم، وتعليم سماوي لا يترك في الحق لبساً ألبته، وإيضاح هذا: أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر صفتان يتصف بهما جميع الحيوانات - والله المثل الأعلى - فالبقر يسمع ويبصر، والبعير يسمع ويبصر، والإنسان يسمع ويبصر؛ ولأجل هذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ مقترناً بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يعني: لا تنتطح يا عبدي يا مسكين فتنفي عني صفة سمعي وبصري بالدعاوي الباطلة أنك لو أثبت السمع والبصر كنت مشبهاً بالخلق (لا)؛ أثبت لي سمعي وبصري إثباتاً مبنياً على أساس التنزيه مراعيّاً فيه قولي قبله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فأول الآية الكريمة تنزيه كامل من غير تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات إيماناً كاملاً من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل. فذكرنا أساسين من هذه الأسس الثلاثة:

الأول: هو الأساس الأعظم الذي هو رأس الخير: تنزيه خالق الكون عن مشابهة الخلق.

الثاني: الإيمان بالصفات، وتصديق الله ورسوله فيما أثنى به على نفسه، أو أثنى عليه به رسوله تصديقاً مبنياً على أساس التنزيه على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الأساس الثالث: هو أن نعلم أن عقولنا المسكينة مخلوقة واقفة عند حدها، وأن خالق الكون أعظم وأكبر وأجل وأنزه من أن تحيط به العقول، وهذا الأساس مبين في آية من سورة طه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فمن اعتقد هذه الأسس الثلاثة فنزه خالق الكون عن مشابهة الخلق في ضوء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأثبت له ما أثبتته لنفسه على أساس التنزيه في ضوء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقطع الطمع عن إدراك الكيفيات لقي الله مخلصاً سالماً من ورطة التشبيه، ومن ورطة التعطيل، ومن ورطة التكلف وزج نفسه فيما لا يعنيه ولا يقدر عليه.

هذا نموذج قليل نريد أن نبينه لكم هنا، ثم إننا بعد هذا النموذج القليل الواضح الذي يبسط عقيدة السلف على ضوء القرآن العظيم نؤكد لكم نحن الآن في هذه الدنيا عن قريب سننتقل إلى القبور لا شك، وننقل من القبور إلى عرصات القيامة، وناقش على ما قدمنا من حقير وجليل، ونجد كل ما قدمنا مسطوراً مكتوباً في كتاب أحصاه خالق الكون - جل وعلا - ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويقال للواحد منا ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] ولا شك أن مما ناقش فيه: ماذا نقول فيما أثنى به ربنا على نفسه؟ فمن لقي الله منا وهو مُنَزَّهُ ربه عن تشبيه الخلق، مُصَدِّق ربه فيما قال، قاطع طمعه عن إدراك الكيفية كان على طريق سلامة محققة، وأنا أؤكد لكم أن هذه الأسس الثلاثة لا تأتيه من واحد منها يوم القيامة بلية ولا ويل ولا مشكلة، فلا يقول له الله: لم تنزهني عن مشابهة خلقي؟ لا، أبداً، ولا يقول له: لم تصدقني فيما أثبتت به على نفسي،

وتؤمن بصفاتي على أساس التنزيه؟ لا، أبداً، ولا يقول له: لم لا تدّعي أن عقلك محيط بي؟ لا، أبداً. فهي طريق سلامة محققة.

ثم إنا الآن بعد هذه النقطة التي بناها اليوم وأشرنا إليها الآن نبين لكم - أيها الإخوان - الموقف الطبيعي والذي ينبغي أن يفهم ويسلك لتكونوا على بصيرة من هذه الفِكر المتناقضة التي ضاع الإسلام والمسلمون ضحيتها، وهو ما ذكرنا الآن أن هناك طرفان: طرف من الشيوخ الجامدين الذين يظنون أن كل تقدم في ميدان من ميادين الحياة أنه كفر ومضادة للدين!!، وهذه جناية على الإسلام والمسلمين، وفكر غير صواب، وطائفة أخرى ثقفتها الأجنبي ثقافة مضادة للإسلام، وصبغها كيف يشاء، فكانت تنظر إلى الدين بغير حقيقته، تزعم وتعتقد أن كل تمسك بالدين أنه رجعية وانحراف عن مسأيرة ركب التطور وجمود بالأمة وخلود بها إلى الهاوية!!

هاتان الفكرتان - أيها الإخوان - كلتاهما خاطئة وكلتاهما ضرر على الأمة، ونحن نبين لكم الموقف الطبيعي كما ينبغي، إيضاح ذلك: أن هذا النوع المسمى بالإنسان - أيها الإخوان -: لو كان مخلوقاً من عنصر واحد لكان يمكن أن يكتفي باتجاه واحد، ولكنه مخلوق من عنصرين مختلفين في الحقيقة غاية الاختلاف، أحدهما: اسمه الجسد، والثاني: اسمه الروح، وللجسد متطلبات لا تقوم بها متطلبات الروح، وللروح متطلبات لا تغني عنها متطلبات الجسد، فلا بد أن يسعى الإنسان سعياً مزدوجاً لمتطلبات الروح ومتطلبات الجسد، فإهمال متطلبات الروح هو الويلة الكبرى على العالم، وهو مشاهد الآن، الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، أعني نجحاً في خدمة الإنسان من حيث العنصر الجسدي في جميع أنواع الماديات والتنظيمات، وخدم الإنسان من حيث إنه جسد وجسم بخدمات هائلة لا يعبر عنها، ولكن الحضارة الغربية أفلست كل الإفلاس من جهة الناحية الروحية؛ لأنهم أهملوا الأرواح ولم يربوها على تعليم ضوء سماوي شرعه خالق الكون، فصاروا في غاية من انحطاط الأخلاق،

والتمرد على نظام السماء؛ ولأجل أن تلك الأرواح غير مرباة ولا مهذبة على ضوء الوحي فتراهم الآن يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من القوة التي فعلوا ويدمروها، ولو كان واحد منهم واثقاً بأنه لو دمر ما عنده لدمر الآخر ما عنده لبادروا كلاً ليكتفوا شرها، وما ذلك إلا أنها تدبرها أرواح خبيثة ليست مرباة على ضوء وحي سماوي، وهذا يبين أن إهمال الناحية الروحية يهدد العالم كله بخطر دامي، فأنياب الأسد - مثلاً - وأظفاره قوة حيوانية هائلة، ولكن النفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والغضب والقتل فلا خير فيها للبشرية.

ونحن نضرب لكم الأمثال في هذا: أن القرآن - وهو أساس دين الإسلام - يبين أن الإنسان لا بد وأن يكدح في عمله كدحاً قوياً مع الصلوات الروحية برب العالمين، ونضرب لكم أمثالاً لهذا: إن شئتم أن تحققوا هذا فاقروا آيتين من سورة النساء - كثيراً ما نذكرهما في المناسبات - في صلاة الخوف، وهما قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَّرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، والرجال تسقط رؤوسهم عن أعناقهم، وفي هذا الوقت الضنك الحرج نور القرآن العظيم ينظم الخطة العسكرية على أبداع وجهه وأكماله، في الوقت الذي يحافظ فيه على آداب من آداب الأرواح السماوية وهو الصلاة في الجماعة، هكذا فليكن المسلم على ضوء القرآن العظيم، وتقرؤون أن الله - جل وعلا - يقول في سورة الأنفال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْمْ فِئَةٌ فَثَبَّتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥] قوله: ﴿فَأَثَبْتُوا﴾ هذا تعليم عسكري سماوي، وهو الصمود في الميدان في خطوط النار الأمامية، وفي هذا الوقت الضنك الحرج؛ خالق الكون يقول: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولا يخفى عليكم أن نبي الله داود من أنبياء سورة الأنعام الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى آخر من عد منهم، ثم لما أتم عددهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلِهِمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وأمر النبي ﷺ أمر لنا؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه، وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن الأوامر الخاصة بالرسول تشمل الأمة كلها، وسنضرب لكم أمثلة ثم نرتب المقصود على ذلك، من الأمثلة القرآنية الدالة على أن الخطاب الخاص لفظه بالرسول يشمل حكم الأمة: قوله تعالى في صدر سورة الطلاق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ باسم النبي، ثم بين أنه يدخل في حكمه الأسود والأحمر حيث جمع وعمم في قوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] إلى آخر ما ذكر، فلو كان مختصاً به لقال: إذا طلقت النساء فطلق وأحص العدة واتق الله لا تُخرج. ونظير ذلك قوله في صدر سورة التحريم في خطاب خاص بالنبي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١] ثم بين بخطاب أن هذا شامل للأسود والأحمر حيث قال بعده: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ لِحْمَةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: ٢] جميعاً عن بكرة أبيكم. ونظير ذلك في صدر سورة الأحزاب حيث قال الله في صدرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في خطاب خاص بالنبي، ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأحزاب: ١] فعمم الحكم ليبين أن كل الأمة داخلة في حكم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وقد قال - جل وعلا - مخاطباً للنبي وحده: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ ثم بين الشمول للأسود والأحمر بهذا الخطاب الخاص، قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]. ومن أصرح الأدلة في هذا آيتا الأحزاب وآية الروم، أما آيتا الأحزاب: فالأولى منهما قوله تعالى في زينب بنت جحش: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فكاف الخطاب في قوله:

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ واقعة على خصوص سيدنا محمد ﷺ لأنه المخاطب بتزويجه إياها، وقد بين الله أن هذا الخطاب يقصد به شمول الأسود والأحمر حيث قال بعده مقترناً به: ﴿لَكَيْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وآية الأحزاب الثانية: أن الله قال في النبي ﷺ: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ لو لم تكن الأمة داخلة لما احتيج أن يُخرج الأمة بقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] وأما آية الروم فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنْبِينَ إِلَيْهِ وَآتَقَوْهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١] ﴿مُنْبِينَ﴾ أي: جميع الأمة، وهو حال من ضمير الفاعل في قوله: ﴿فَأَقِمْ﴾. فأقم أنت يا نبي الله وجهك في حال كونكم جميعاً منيبين. وقد أطبق أهل اللسان العربي على أن الحال الحقيقية - أعني التي لم تكن سببية - عند النحويين تلزم موافقتها لصاحبها إفراداً وتثنية وجمعاً وتأنيناً وتذكيراً، فلا يجوز أن تقول: جاء زيد ضاحكين، ولا جاءت هند ضاحكات، ولا قم أنت حال كونكم قانتين وساجدين، لا، فلما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ في حال كونكم منيبين دل على دخول الأمة، إذا علمتم هذا فاعلموا أن النبي ﷺ لما قال له الله: ﴿فَبِهْدَاهُمْ أُقْتَدِرْ﴾ [الأنعام: ٩٠] هدى هذه الرسل المذكورين أنا ندخل في ذلك.

وقد نعرض هنا لمسألة: أن بعض الجهلة يقول: كيف يؤمر النبي ﷺ بالاعتداء بالرسول وهو سيدهم وأفضلهم؟

والجواب: أن أمره بالاعتداء بهم أظهر لفضيلته ليشاركهم فيما فعلوه من الخير ويزيد عليهم بخيرات كثيرة لم تكن في شرائعهم، وإذا شاركهم بما عندهم وزاد عليهم كان ذلك أبين للفضل، وقد ثبت في صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في ص؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ﴾ [الأنعام: ٨٤] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

فِيهِدْنَهُمْ أَقْتَدَهُ ﴿ [الأنعام: ٩٠] فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ (١)،
هذه الآيات والأحاديث تدلنا على أن ما جاء بشرعنا من الأمر باتباع داود
أننا مأمورون به، إذا عرفتم هذا فالله يقول لداود: ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَّرَ
فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١١] وهذا أعظم كفاح عسكري في وقته؛ لأن معنى: ﴿ أَنْ
أَعْمَلَ سَبِغَتٍ ﴾ أي: دروعاً سابغات تحصن بها نفسك وجيشك في الميدان
إذا التقت الصفوف، وقوله: ﴿ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١١] علمه بها أصول
الحدادة؛ لأن السرد في لغة العرب: نسج الدرع، ومعنى: ﴿ وَقَدَّرَ فِي
السَّرْدِ ﴾ اجعل الحلق والمسامير بأقدار متناسبة؛ لأن المسمار إن كان أكبر
من الحلقة كسرهما، وإن كان أصغر منها لم يشدها كما ينبغي، ولما بين له
هذا الاحتياط العسكري في الميدان قال بعده: ﴿ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سبأ: ١١]
ونحن مأمورون باتباعهم كما بينا، فعلينا أن نستعد لكفاح العدو، وأن
نعمل صالحاً ونطيع خالق الكون، والله - جل وعلا - يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ
مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] هذا أمر من خالق الكون، وخالق
السموات والأرض أوامره صعبة، والتكاسل والتناوم عنها ليس بالأمر
الهيين؛ لأن الله يقول: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن نصيبهم فتنة أو
يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور: ٦٣] ويقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فجعل أمر
الرسول مانعاً من الاختيار موجباً للامتثال، وقد قال لإبليس: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ
أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] كأنه يقول للمتواكلين المتكاسلين: ما لكم
أن لا تعدوا القوة الكافية إذ أمرتكم؟ والنبى ﷺ وهو القدوة الأكبر
والمربي الأعظم، وسيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - هكذا كان
يفعل، كان يعمل بالأمر الدينية، ويتقدم أعظم التقدم في الميادين الحيوية
الدنيوية، وهو مرض ربه، وعلى صلة بربه، وأنا أضرب لكم بعض الأمثال

(١) أخرجه البخاري في التفسير (سورة ص) حديث رقم (٤٨٠٧)، (٨/٥٤٤).

في أنه ينتفع بالأمور الدنيوية ولو كان إنتاجها من الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الخنازير، نضرب لكم ثلاثة أمثلة من هذا نضرب المثل بها دائماً:

منها أن النبي ﷺ لما حاصره الأحزاب ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المذكور في قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] قال له سلمان: كنا إذا خفنا خندقنا^(١). هذه مثلاً خطة عسكرية، الأذهان التي أنتجتها من الدنيا أذهان كفرة فجرة مجوس يسجدون للنار، فالنبي ﷺ لم يقل: هذه خطة عسكرية نجسة؛ لأن أصلها من الكفار، وقد اخترعها المجوس!! لا، أخذ الخطة الدنيوية من الكافر وهو مرضٍ ربه، محافظ على آداب السماء والآداب الروحية.

ومن أمثلة هذا أن النبي ﷺ لما تكالبت عليه قوى الشر، واضطر إلى الخروج من وطنه، ودخل هو وصاحبه في الغار كما نص الله في سورة براءة: ﴿ثَانِيكُنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وجميع الدنيا حرب عليه، والطريق تُبث فيها العيون والرصد، وجد خبيراً كافراً واسمه: عبد الله بن الأريقط الدؤلي، كافر يسجد للصنم إلا أنه عنده خبرة دنيوية، فهو يعرف الطرق، ويحاشي الطرق المعهودة، ويأتي به من طرق لم يعلمها الناس حتى يَسْلَمَ من الرِّصْد والعيون المبتوثة أمامه؛ النبي لم يقل: هذه خبرة كافر يسجد للصنم فهي خبرة نجسة قدرة أتركها!! لا، استعان بخبرته وأعطاه مراكبه هو وصاحبه ثم سار منتفعاً بخبرته حتى أوصله المدينة بسلام.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه هَمَّ أَنْ يَمْنَعَ وَطْءَ النِّسَاءِ الْمَرَّاضِعِ؛ لِأَنَّ الْغَيْلَةَ الَّتِي هِيَ وَطْءُ الْمَرَضِعِ، كَانَ الْعَرَبُ يَزْعَمُونَ أَنَّهَا

(١) تاريخ الطبري (٤٤/٣).

تُضعف عظم الولد، وإذا ضرب الرجل بسيفه فبنا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا رجل غيّلت أمه، يعني: وطئت أمه وهو يرضع، وكان شاعرهم يقول في هذا الميدان^(١):

فوارس لم يُغَالُوا في رَضَاعٍ فتنبو في أكْفُهُم السيوف
فلما أخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم أخذ
بهذه الخطة الطبية ولم يقل: أصل تجاربها من الكفرة^(٢).

وهذه أمور وأمثلة تدل على أن النبي ﷺ وهو سيد [الخلق]^(٣) يأخذ الأمور الدنيوية ولو اخترعتها أذهان كافرة فاجرة على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار» وهو فيما بينه وبين ربه مرضي ربه جل وعلا. وعلى كل حال فنحن نضرب دائماً الأمثال؛ لأن الأمثال تقرب المعقولات كالمحسوسات.

الاستقراء الصحيح دل على أن الحضارة الغربية فيها نافع غاية النفع، وضار غاية الضرر، وأما النافع منها فهو ما أنتجته في الميادين الحيوية في الماديات والتنظيميات، وما خدمت به الإنسان من حيث إنه جسم في جميع أنواع الحياة، والضرار منها: هو الإفلاس الروحي والتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون - جل وعلا -، فإذا عرفنا أن منها نافعاً ومنها ضاراً فنضرب لذلك الأمثال: مثل الموقف الطبيعي منها مثل رجل بعيد عن العمران في آخر رمق من العطش، وجد سماً فتاكاً وماءً عذباً زلالاً، فالعقل الصحيح يحصر الأقسام عنده في أربعة: إما أن يشرب السم والماء معاً، أو يتركهما معاً، أو يشرب السم ويترك الماء، أو يشرب الماء

(١) البيت في الكامل (ص ١٧٧).

(٢) الحديث أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب: جواز الغيلة، حديث رقم (١٤٤٢)، (١٠٦٦/٢).

(٣) في الأصل: الكون. وما بين المعقوفين زيادة على الأصل.

ويترك السم. فإن شربهما معاً لم ينتفع بالماء؛ لأن السم يهلكه، وإن تركهما معاً مات في الطريق ولم يلحق بالقافلة، وسقط دون الركب، وإن شرب السم وترك الماء فهو رجل أحمق أهوج لا يدري خيراً من شر، وإن كان عاقلاً فطبعاً أنه يشرب الماء ويترك السم، ونحن يؤسفنا كل الأسف أن المنتسبين للسياسة الذين يحركون دفة الأمور عكسوا القضية فشربوا من الحضارة الغربية سمّها القاتل الفتاك وهو ما جنته من الانحطاط الخُلقي والردالة والتمرد على نظام السماء، وتركوا نافعها وهو التقدم الدنيوي في ميادين الحياة!!

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل^(١)

فعلينا جميعاً أن نعلم هذا، ونعلم أن دين الإسلام دين ميدان، ودين كفاح ليس دين نوم ولا تكاسل، ومن نام وتكاسل داسته نعال الأراذل، وكان حماراً يقوده من شاء أن يقوده، فلا بد من التقدم في الميدان، والدنيا كفاح لا بد من العمل، ولكن الإنسان يعمل في دنياه وهو مرضٍ ربه، ولا يمنع العقل أن يكون الإنسان محافظاً على دينه في جميع السمات، وجميع الحركات والسكنات، وهو متقدم في الميادين الدنيوية كل التقدم كما عرفه التاريخ بالنبي ﷺ وأصحابه، نعم هنالك مشكلة عظيمة هي محك المشكلات في هذا الزمن؛ ذلك لأن الكفار عرفوا من قيمة دين الإسلام ما جهله أو تجاهله المسلمون، وعلموا أن الدين الإسلامي إذا كان عند المسلمين على الوجه الصحيح لا يقف أمام المسلمين شيء، وأن قوة الإسلام تدك الجبال فمن زمن الدولة العباسية وهم يعملون بضربه بالمعاول ليضعفوه، و[صار]^(٢) جميع الميادين الحيوية مؤلفوها كفر، ولم يؤلفوا تأليفاً ينتفع به الإنسان في ميدان من ميادين الحياة لا في تجارة،

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه (ص ١٧٤).

(٢) في الأصل: «وصاروا».

ولا سياسة، ولا عسكرية، ولا هندسة، ولا كيمياء إلا حطوا في تلك التآليف أفكاراً هدامة وعقائد زائفة مضللة تفصل الشخص عن دينه، ومرادهم بذلك أحد أمرين: إما أن يتخلف أولاد المسلمين عن ميادين الحياة فيبقون لقمة سائغة لمن جاءهم، أو يدخلوا في ميادين الحياة فينشبوا في الفخ الذي وضعوا لهم، وعلى المسلمين أن يتنبهوا لهذا، ويعلموا أولادهم العلوم الدنيوية، ويحذروا عليهم من تلك العقائد الهدامة والأموال التي تصدهم عن دينهم، وهذا يكون بالمراقبة، وباجتماع المسلمين، وتثقيف أولادهم ثقافة صحيحة، وجمع أموال طائلة على حساب الناس والمسلمين واستجلاب مدرسين يتقنون العلوم الدنيوية ويميزونها مما جاء في الطريق من شوك وألغام.

وعلى كل حال فنحن الآن لا يمكن أن نسترسل لأن فضيلة أخينا القاضي عنده أسئلة وأجوبة يريد أن يسجلها فلا يمكن أن نستغرق عليه الوقت، والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته، ونرجو الله لنا ولكم جميعاً العافية والتوفيق والسداد إلى ما يرضي الله ورسوله...





الإسلام دين القوة
تكريم الإسلام للمرأة



(١) / (...) لأن الطرق المعهودة بث الكفار عليها العيون والرّصد ليأخذوا النبي ﷺ ومن معه، فالنبي ﷺ لما وجد هذا الخبير الكافر لم يقل: خبرة هذا الخبير خبرة نجسة قدرة لأنها من كافر، لا، انتفع بخبرته، وأعطاه المراكيب، وراح به ومن معه، وساحل بهم، وتجنب الطرق التي عليها العيون والرّصد حتى أوصله إلى المدينة بسلام، وهذا يبين أن المسلم يأخذ الخطة الدنيوية من الكفار وهو فيما بينه وبين ربه مرض ربه، وقد ثبت في صحيح مسلم - وهو أصح كتاب بعد كتاب الله وبعد صحيح البخاري - أن النبي ﷺ همّ أن يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا وطئها زوجها ولها ولد ترضعه أن ذلك الوطاء يضعف عظم الولد ويضره، وكانوا إذا ضُرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا رجل غيّل!! يعني وُطئت أمه [وهو يرضع] (٢)؛ لأن هذا الذي أضعف عظمه، وشاعرهم يقول في هذا الميدان (٣):

فوارس لم يُغَالُوا في رضاع فتنبو في أكفهم السيوف

فالنبي ﷺ همّ أن يمنع وطء النساء المراضع لهذا السبب فأخبرته فارس والروم بأنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم، فأخذ هذه الخطة الطبية من الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الخنازير فارس والروم ولم يقل: هذه

(١) من الشريط السابع، وأول المحاضرة غير موجود في التسجيل الذي بين أيدينا. والشيخ ﷺ يتحدث عن الإسلام وأنه دين القوة والتقدم في جميع الميادين، وأنه لا يمنع من الاستفادة مما عند الكفار من الأمور النافعة. وقد سبق الكلام في ذلك في المحاضرة رقم (٢)، كما سيأتي ضمن المحاضرة رقم (٤). كما تجد نظائره في العذب النмир في مواضع متعددة.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام.

(٣) تقدم قريباً في المحاضرة الثانية.

الخطبة الطيبة قدرة نجسة، لأن أصلها من الكفار!! لا، هذه أمثلة وأضواء نلقيها لإخواننا ليتحققوا بها الموقف الطبيعي لهذه المشاكل الراهنة التي خيمت على الدنيا، فعلينا جميعاً أن نفهم الوضع على حقيقته، ونعلم أن دين الإسلام ليس حجر عثرة في طريق التقدم بل هو دين التقدم في جميع الميادين، ومن لم يتقدم في الميادين فهو مخالف أمر الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقلوه: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أمر من خالق هذا الكون، وأوامر الله ليست بالشيء الهين، بل هي أوامر خالق الكون، وقد قال إبليس لما عصى أمره: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] فالذين لا يعدون القوة بل يتواكلون ويتكاسلون وينامون من أين لهم أن الله لا يقول لهم كما قال لإبليس: ما لكم ألا تعدوا القوة إذ أمرتكم؟ وهذا يبين أن الضعف والعجز والتواكل هو تمرد على نظام السماء ومخالفة لأوامر القرآن، وأن دين الإسلام دين تقدم في الميدان وكفاح.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم^(١).

ومن المؤسف كل الأسف الذي يأسف له المسلم ويحزن أن كثيراً ممن يحركون الدفة السياسية في أقطار الدنيا عكسوا القضية!! إنا لله وإنا إليه راجعون، فأخذوا من الحضارة الغربية سمها الفتاك وضررها المحض، وهو ما أنتجته من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، والطعن في الدين الذي هو وضع خالق هذا الكون، في الوقت الذي لم يحصلوا فيه على شيء مما أنتجته من الفوائد الدنيوية فعكسوا القضية على خط مستقيم!!

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل^(٢)

ثم إنا هنا نلقي بعض الكلام يخص بأخواتنا: أيتها الأخوات

(١) يتيمة الدهر (٢٥٨/١)، الخزانة (١٩٣/١)، صبح الأعشى (١١/١٩٩).

(٢) تقدم قريباً في المحاضرة الثانية.

المسلمات في أقطار الدنيا: اعلمن أن الله تبارك وتعالى أوجب عليكم مكارم الأخلاق اللائقة بشرفكن من الصيانة والستر والعفاف، وإرضاء الفضيلة، فالتى تريد منكن أن تعمل إذا تيسر لها أن تعمل في بيت زوجها فإن ذلك معاونة عظمت في بناء المجتمع الإنساني؛ لأن المرأة بصفاتها الطبيعية تقوم بخدمات هائلة للمجتمع الإنساني قد لا يقوم الرجل بمثلها، وهناك بعض الخدمات لا يمكن أن يقوم بها غيرها؛ لأنها هي التي تحمل الأولاد في بطنها، وهي التي تضعها في النفاس، وهي التي ترضع، وتقوم على الرضيع، وعلى الفطيم، وتعالج المريض، وتقوم بخدمات البيت، فإذا خرج زوجها في ميدان من ميادين الحياة إلى جهاد أو إلى عمل من الأعمال جاء فوجد قرينه الآخر وقيمه الكبير يحفظ كل شيء، وجد طفله الرضيع مُرضعاً، والفطيم محفوظاً، والمريض معالماً، وجميع لوازم البيت مهياً، وهذه خدمات إنسانية ترضي الله، وهي للمجتمع الإنساني مساهمة لا يوجد نظيرها، زيادة على هذا أن هذا يكون مع العفاف والكرامة التي تليق بالشرف والمروءة، وترضي الله والرسول، وترضي الضمير الإنساني، فالشيطان لا شك يغيظه هذا الأمر أن يتعاون هذان النوعان هذه المعاونة الفعالة العظيمة على بناء المجتمع في دينه ودينه فينخس في أذن المرأة ويقول: جعلوك دجاجة، وأنت محبوسة دائماً!! ثم يخرجها في الميدان لتكون مائدة لخنونة الأعين!! المرأة جمالها يتلذذ به الإنسان، والتلذذ بها خير متاع يوجد في متاع الدنيا، والعين الخائنة إذا نظرت إلى جمالها فقد ظلمت ذلك الجمال، واستغلت ذلك الجمال مكرراً وخديعة وخيانة لله ولرسوله وللضمير الإنساني وللشرف والفضيلة، فعلى بناتنا وأخواتنا أن يعلمن قيمتهن ومكانتهن التي أعطاهن الله، وأن الوحي السماوي صانهن عن الابتذال، وأنه جعلهن يقمن بخدمات لا يقوم بها غيرهن في المجتمع، فهي أعظم من خدمات الرجال، إلا أنها في صيانة وعفاف وكرم وستر، ثم إنه لا شك أن المرأة قد تضطر إلى أن تخرج في ميدان الحياة كأن لا

يكون لها زوج ولا قيم يقوم بشؤونها فلها أن تعمل، ولكن إذا اضطرت إلى العمل فعليها - أيتها الأخوات - أن تخرج في ستر وعفاف وصيانة وعدم ابتذال، وتزاوول كل ما شاءت من الأعمال في ستر وعفاف، أما خروجها في حالات لا تليق بالشرف ولا بالفضيلة ولا بالإنسانية فهو أمر يعرق منه الجبين، ويخجل منه الإنسان!! والبلاد التي انتشر فيها ذلك كمصر والشام والعراق ضاع فيها الشرف والفضيلة، وكانت أولاد الزنا تعد فيها بالملايين، فعلى المسلمات أن يرعين الله في أنفسهن، ويعلمن أن الله جعل لهن احتراماً وشرفاً وكرامة، وأن لا يضيعن كرامتهن بالابتذال والتعرض إلى الخيانات والأمور التي لا تنبغي. وأظن أن الوقت قد قرب، والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته، نرجو الله لنا ولكم جميعاً العافية والتوفيق.



أضواء على مسائل مهمة يكثر الغلط في تصورها)

ويتنظم ذلك ست مسائل:

- ١ - الاعتقاد الصحيح في نصوص الصفات.
- ٢ - مفهوم لا إله إلا الله.
- ٣ - بيان أن الإسلام دين القوة والتقدم في جميع الميادين.
- ٤ - بيان الموقف الصحيح من الحضارة الغربية.
- ٥ - بيان أن الإسلام ينظم جميع شؤون الحياة.
- ٦ - الرابطة الإيمانية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) / والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته... وبعد:

فإني بهذه المناسبة أريد أن ألقى أضواءً على بعض المسائل التي لها أهميتها في الإسلام مع أنها يتصورها كثير من ذويه بمفاهيم غير صحيحة:

من ذلك: ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ من الصفات التي تمدح بها خالق الكون - جل وعلا - أو أثنى بها عليه نبيه ﷺ، كصفة الاستواء ونحو ذلك، فإن كثيراً من أهل الملة الإسلامية يتصورون ذلك بغير المفاهيم الحقيقية، والذي أريد أن أقوله: إن المفهوم الصحيح لذلك يتركز على ثلاثة أسس موضحة غاية الإيضاح في القرآن العظيم.

الأول منها: تنزيه خالق السموات والأرض التنزيه التام الكامل عن مشابهة شيء من خلقه في الذوات والصفات والأفعال، وهذا الأصل العظيم مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ونحو ذلك من الآيات.

الثاني من تلك الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به من قال في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: ٣، ٤] لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿عَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾

(١) من الشريط الثامن.

[البقرة: ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿٤﴾ وذلك الإيمان بالصفات مبني على أساس تنزيه الخالق عن مماثلة خلقه في شيء من ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فإتيانه - جل وعلا - بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ له مغزى عظيم وسر كبير وتعليم واضح لا لبس في الحق معه؛ لأن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات - والله المثل الأعلى - فكأنه يقول: لا تنتطع يا عبدي فتنتفي عني صفة سمعي وبصري مدعياً أن الحيوانات تسمع وتبصر، وأن إثبات سمعي وبصري لي والإيمان بهما يستلزم التشبيه بما يسمع ويبصر من خلقي، لا، بل آمن بسمعي وبصري وأثبتهما لي، ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله مقترناً به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فأول الآية دليل على التنزيه الكامل من غير تعطيل، وآخرها دليل على الإيمان بالصفات من غير تشبيه ولا تمثيل، فيلزم من ذلك إيمان وتنزيه، فمن تقدم بين يدي الله وتجراً على أن ينفي عنه وصفاً أثنى به على نفسه أو أثنى عليه به نبيه ﷺ فكأنه يجعل نفسه أعلم بالله من الله ورسوله!! سبحانك هذا بهتان عظيم!! ومن اعتقد أن وصفاً أثنى الله به على نفسه يشبه شيئاً من صفات خلقه فهو أجهل خلق الله بالله، ومن أثبت لله ما أثبتته لنفسه في حال كونه منزهاً ربه غاية التنزيه عن مشابهة صفات الخلق فهو مؤمن مُنَزَّه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل مستضيء بنور قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الثالث من تلك الأسس: قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف؛ لأن العقول لا تحيط علماً بمن خلقها، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿١١٠﴾ [طه: ١١٠] فقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾ فعل في سياق النفي، وهو صيغة عموم كما هو مقرر في الأصول، ومن المعلوم

أن الفعل قسمان: فعل حقيقي، وفعل صناعي، أما الحقيقي: فهو الحدث المتجذر المعبر عنه في علم النحو بالمصدر، وأما الصناعي: فهو المعروف في الصناعة النحوية بفعل الأمر والماضي والمضارع، والفعل الصناعي ينحل عن مصدر وزمن عند النحويين، وعن مصدر وزمن ونسبة عند جماعة من البلاغيين، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية، والمقصود أن المصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً؛ وذلك المصدر لم يتعرف بمَعْرِفٍ فهو في معنى النكرة، فالنفي المقترن بالفعل يتسلط على المصدر الكامن في مفهومه فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي، وهي من صيغ العموم كما هو معروف في محله. فقله إذاً: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] في معنى: لا إحاطة للعلم البشري بخالق الكون - جل وعلا - وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنكم إن لقيتم ربكم يوم القيامة معتقدين في آيات الصفات هذا المعنى الصحيح المتمركز على هذه الأسس الثلاثة القرآنية لا يلومكم الله ولا يوبخكم على ذلك، فلا يقول لكم: لِمَ تنزهوني عن مشابهة خلقي؟ ولا يقول لكم: لم تؤمنون بصفاتي وتصدقونني فيما مدحت به نفسي أو أثنى به علي نبيي؟ ولا يقول لكم: لِمَ لا تقولون: إن علمكم محيط بمن خلقكم؟ فهذا المفهوم الصحيح طريق سلامة محققه؛ لأنه في نور القرآن العظيم، ولو تنطع متنطع فقال: بينوا لنا كيفية للاستواء منزهة عن كيفية استواء المخلوقين لنعتقد صفة استواء منزهة عن مشابهة صفات الخلق؟ قلنا: أعرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة بتلك الصفات؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الاتصاف متوقفة على معرفة كيفية الذات، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] وبالجملة فالله - جل وعلا - حق، وصفاته حق، والمخلوقون حق، وصفاتهم حق، وللخالق صفات لا تقيده بكماله وجلاله، وللخلق صفات لا تقيده بحالهم، وبين صفة الخالق والمخلوق من التباين والمنافاة مثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، ألا ترون أن الله تعالى وصف نفسه

بالقدرة فقال: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ووصف بعض خلقه بالقدرة قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] ووصف نفسه بالحياة قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] ووصف بعض خلقه بالحياة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] فلله قدرة وحياة لا ئقتان بكماله وجلاله، وللمخلوقين قدرة وحياة مناسبة لحالهم وفقدهم وفنائهم، وبين قدرة الخالق وحياته وقدرة المخلوق وحياته من المنافاة مثل ما بين ذات الخالق والمخلوق. ووصف نفسه بالعلم قال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمِهِ﴾ [الأعراف: ٧] ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] ووصف بعض خلقه بالعلم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فعلم الله مناف لعلم المخلوق كما بينا، ولو تتبعنا الآيات الواردة بنحو ذلك لجئنا منها بالمئات، ولكن القصد مطلق التمثيل. وكذلك وصف نفسه بالاستواء على العرش في سبع آيات من كتابه، ووصف بعض خلقه بالاستواء على بعض المخلوقات كقوله: ﴿لِنَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] وقوله: ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَىٰ الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] فاستواء الله على عرشه الذي تمدح به وأثنى به على نفسه بالغ من الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين استواء خلقه، كقدرته وعلمه وحياته؛ لأن ذاته حق، وجميع صفاته حق، ولا يشبهه شيء من خلقه في ذاته ولا في شيء من صفاته، فالذات وجميع الصفات من باب واحد، كلها حق، وكلها منزهة عن مشابهة الخلق، والإيمان بكلها واجب.

ثم إنه من المقرر في الأصول: أن الكلام المفيد المعبر عنه في المعاني: بد(الإسناد الخبري)، وفي النحو: بد(الجملة الاسمية) أو (الفعلية)، وفي المنطق: بد(القضية) بالنظر إلى ما دل عليه معناه التركيبي له حالتان:

الأولى: أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره بوجه، وهو المعروف بد(النص) في أشهر اصطلاحاته.

الثانية: أن يحتمل أكثر من معنى واحد، وهذا القسم الأخير له حالتان:

الأولى: أن يكون أظهر في بعض الاحتمالات من بعض.

والثانية: أن تستوي الاحتمالات.

فإن كان أظهر في بعضها فما هو أظهر فيه يسمى بد(الظاهر) والمصير إليه واجب إلا بدليل صارف عنه يجب الرجوع إليه، وصرفه عن ظاهره لذلك الدليل هو المعروف في اصطلاح أهل الأصول بد(التأويل) ومنه تأويل صحيح وفاسد، ومثال الصحيح منه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الجار أحق بسقبه»^(١) فإن ظاهره المتبادر منه: ثبوت الشفعة للجار مطلقاً، وهو محتمل لأن يكون المراد في الجار خصوص الشريك المقاسم، وهذا الاحتمال المرجوح دل عليه حديث جابر: «فإذا صُرِفَ الطرق وضربت الحدود فلا شفعة»^(٢). وأمثلة الفاسد منه كثيرة معروفة في الأصول، وهو ينقسم إلى ما يسمى تأويلاً بعيداً وفاسداً، وإلى ما يسمى لعباً كما هو معروف في الأصول.

وإن تساوت الاحتمالات فهو المعروف بد(المجمل) ويجب التوقف

(١) أخرجه البخاري في الشفعة، باب: عرض الشفعة على صاحبها قبل البيع، حديث رقم (٢٢٥٨)، (٤/٤٣٧)، وأطرافه في (٦٩٧٧، ٦٩٧٨، ٦٩٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب: بيع الشريك من شريكه، حديث رقم (٢٢١٣)، (٤/٤٠٧)، وأطرافه في: (٢٢١٤، ٢٢٥٧، ٢٤٩٥، ٢٤٩٦، ٦٩٧٦). وأخرجه مسلم في المساقاة، باب: الشفعة، حديث رقم (١٦٠٨)، (٣/١٢٢٩) بلفظ مغاير.

عنه حتى يوجد دليل يعين الاحتمال المقصود، فلو قالت بينة: «نشهد أن زيداً غريم عمرو بألف دينار» فكلامها هذا مجمل؛ لأن الغريم مشترك بين طالب الدين والمطلوب به؛ واللفظ محتمل لكلا الاحتمالين دون ترجح. وكما لو قيل: «عدا اللصوص على عين زيد» فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عورؤها، وأن تكون عينه الجارية عورؤها، وأن تكون ذهبه وفضته انتهبها.

فإذا علمت هذا التقسيم فاعلم أنا نريد أن نطبقه على المفهوم الظاهر المتبادر من آيات الصفات وأحاديثها فتساءل ونقول: أرايتم إذا أثنى الله على نفسه المقدسة الكريمة بصفة فما هو الظاهر المتبادر إلى أذهان المسلمين من مفهومها، أهو تشبيه الخالق بخلقه حتى يلجأ ذلك إلى التأويل؟ أو هو مجمل محتمل للتشبيه والتنزيه احتمالاً متساوياً؟ أو الظاهر المتبادر هو تنزيه الله عن مشابهة خلقه أكمل تنزيه وأتمه؟ الجواب طبعاً: أن كل وصف وصف الله به نفسه فظاهره المتبادر منه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات الخلق، ولا ينكر عاقل أن الظاهر المتبادر هو منافاة الخالق لخلقه في صفاتهم وذواتهم وأفعالهم، وكيف يشبه الخلق خالقه والخلق أثر من آثار قدرته وإرادته؟ فعلينا جميعاً أن نصدق ربنا فيما وصف به نفسه، ونصدق نبينا في ذلك، وننزه ربنا عن مشابهة الخلق على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن ذلك: أن كثيراً من المتسمين بالإسلام لا يحققون المفهوم الصحيح لكلمة (لا إله إلا الله) وهي مركبة من نفي وإثبات، فمعنى نفيها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، ومعنى إثباتها: إفراده - جل وعلا - بالعبادة وحده، وهي التقرب إليه بما شرع بإخلاص على وجه المحبة والذل والخضوع. والذي نريد أن نقوله هنا: هو أننا يجب علينا أن نعلم أن كل أمرٍ أمر الله بالتقرب به إليه فهو

حقه الخالص له - جل وعلا - ، وإخلاصنا له في حقه - جل وعلا - هو عين المحبة والتعظيم لنبينا ﷺ ، ولا يجوز صرف شيء من ذلك لغيره تعالى ، وعنوان المحبة الصادقة لله ورسوله هي طاعة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(١)
قالت وقد سألت عن حال عاشقها بالله صفة ولا تنقص ولا تزد
فقلت: لو كان رهن الموت من ظمأ وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد^(٢)

ومن ذلك: ما تلفقه الدعاية المغرضة ضد دين الإسلام من أنه ينافي التقدم في ميادين الحياة ولا يساير التطور الجديد، وهذه الدعاية - مع الأسف - راجت في الأكثرية من شباب أبناء المسلمين، وجعلتهم يحاولون التخلص من الدين بكل الوسائل ليحصلوا على التقدم الذي تتطلبه الأوضاع الراهنة للحياة البشرية، ومعلوم أن العقل الساذج إذا لم ينور بنور المعرفة فأسرته المفاهيم الزائفة فأغوته عن قصد السبيل، فالتبست عليه النسب القائمة بين المعقولات، ألا ترون أن المدلول عليه بدلالة المطابقة من لفظة البياض ينافي في حقيقته ومفهومه المدلول عليه بالمطابقة من لفظ البرودة؟ فكل مفهوم مطابق ثبت له أنه معنى البياض انتفى عنه ضرورة أنه معنى البرودة كعكسه، والبياض أيضاً ينافي في حقيقته ومفهومه السواد،

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٧٩/١٣).

(٢) البيتان في ديوان يزيد (ص ٨٣)، وفي قِرَى الضيف (ص ١١٨)، والمستطرف (٢/ ٣٨٥)، والمدمش لابن الجوزي (ص ٣١٤)، بدائع الفوائد (٣/ ٢١٦). ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى
فقال: خلفته لو مات من ظمأ
قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته
بالله صفة ولا تنقص ولا تزد
وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد
يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

فكل مفهوم مطابق ثبت له أنه معنى البياض انتفى عنه ضرورة أنه معنى السواد كعكسه، وكذلك السواد فإنه ينافي في حقيقته ومفهومه الحلاوة. فكل مفهوم مطابق ثبت له أنه معنى السواد انتفى عنه أنه معنى الحلاوة كعكسه، وكذلك الكلام فإنه ينافي في حقيقته ومفهومه السكوت، فكل مفهوم مطابق ثبت له أنه معنى الكلام انتفى عنه أنه معنى السكوت كعكسه، كما أن الكلام ينافي في حقيقته ومفهومه القعود، فكل مفهوم ثبت له أنه معنى الكلام انتفى عنه أنه معنى القعود، ولكن منافاة البياض للسواد ليست كمنافاة البياض للبرودة، فإن السواد والبياض ضدان يستحيل اجتماعهما في نقطة بسيطة من اللون، بخلاف البياض والبرودة فلا تضاد بينهما، فيجوز أن يكون الجرم الواحد أبيض من جهة بارداً من جهة أخرى كالثلج، ومنافاة السواد للبياض ليست كمنافاة السواد للحلاوة، ولا مانع من كون الجرم الواحد أسود من جهة حلواً من جهة أخرى كالتمر السوداء، بخلاف البياض فإنه لا يجمع السواد في وقت واحد من جهة واحدة لاستحالة اجتماع الضدين. ومنافاة الكلام للسكوت ليست كمنافاة الكلام للقعود، فلا مانع من أن يكون الشخص الواحد قاعداً من جهة متكلماً من جهة أخرى، ولا يجوز أن يكون ساكناً متكلماً في وقت واحد. ومن المعلوم أن المتقابلين لا يجتمعان سواء كانا نقيضين أو ضدين أو متضايفين أو عدماً وملكة، بخلاف الخلافيين فلا مانع عقلاً من اجتماعهما كما رأيت أمثلة ذلك.

وإذا علمت هذا فاعلم أن الدعاية المغرضة ضد الإسلام خيلت للسذج من ذويه أن النسبة بين التقدم وبين التمسك بالدين هي النسبة بين المتقابلين الذين لا يمكن اجتماعهما كالسواد والبياض، فسببت تلك الفلسفة السوفسطائية انسلاخ خلق لا يحصى من دين الإسلام حين اعتقدوا أنه ينافي التقدم منافاة المتقابلين حرصاً منهم على التقدم المزعوم وتفضيلاً له على الدين، ولو علموا الحقيقة لعلموا أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين لها نظران من جهتين:

الأولى: النظر إليها بحكم العقل مجرداً عن نصوص الوحي.

الثانية: النظر إليها بحكم ما جاء في ذلك من الوحي السماوي.

أما بالنظر إلى الحكم العقلي مجرداً عن النقل فالنسبة بين الدين والتقدم كالنسبة بين البياض والبرودة، فكما أن الجرم الأبيض لا مانع عقلاً من أن يكون بارداً فكذلك المتمسك بالآداب السماوية لا مانع عقلاً من أن يكون متقدماً في جميع ميادين الحياة كما عرفه التاريخ للنبي ﷺ وأصحابه ومتابعيهم متابعة صحيحة.

وأما بالنسبة إلى ما جاء في الكتاب والسنة من وعد الله الصادق للمتمسكين بالدين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] ونحوها من الآيات الكثيرة والأحاديث، فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم هي النسبة بين الملزوم ولازمه؛ لأن التمسك بالدين على الوجه الكامل الصحيح ملزوم بالتقدم الكامل، والنصر النهائي، والتقدم لازم له، ومعلوم أن النسبة بين الملزوم واللازم لا تعدو أحد أمرين: إما أن تكون المساواة، وإما أن تكون العموم والخصوص المطلق؛ لأن اللازم لا يكون أخص من ملزومه مطلقاً ولا من وجه، ولا يكون مبايناً له كما هو معلوم، فالإنسان مثلاً ملزوم بالحيوانية والناطقة، وهما لازمان له، وأحد هذين اللازمين مساو له في الماصدق وهو الناطق، والثاني أعم منه وهو الحيوان، ومعلوم أن الوحي الصحيح ناقل عن حكم العقل كما هو معروف، فالنسبة بين الأمرين على الحق الذي اقتضاه الوحي المنزل هي النسبة بين الملزوم واللازم. فانظر كيف استطاع أولئك الأعداء أن يصوروا عند هؤلاء من المتسمين باسم الإسلام نسبة الملزوم للازمه بصورة مضادة أخرى هي نسبة الضد للضد، فقطعوا بذلك صلتهم بربهم ودينهم.

ثم إنا نريد هنا أن نسلط بعض الأضواء على حقيقة الموقف الطبيعي

للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية بفلسفة منطقية تترك ليل المسألة نهاراً، وذلك بكشف نقابها واستبانة ما وراء بابها بدليل اصطلاحى متقدم مشهور يسميه علماء الجدل (التقسيم والترديد)، ويسميه علماء المنطق (الشَّرْطِي المنفصل)، ويسميه علماء الأصول (السبر والتقسيم)، ولما كان هذا الدليل العظيم هو السبيل الوحيد إلى إيضاح هذه المسألة إيضاحاً لا يختلف بعده اثنان أردنا أن نشير إليه إشارة خاطفة ثم نذكر أمثلة له في القرآن العظيم وآثاراً من آثاره التاريخية، ثم نطبقه على مسألتنا تطبيقاً واضحاً يكشف ظلامها وينير دُجَاها.

اعلم أولاً أن مبنى هذا الدليل العظيم على أمرين:

أحدهما: حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحصر، كالعقل، والاستقراء، وهذا هو المعبر عنه بـ(التقسيم).

والثاني: اختبارها بعد الحصر اختباراً صحيحاً يتميز به فاسدها من صحيحها، وهو المعبر عنه بـ(السبر)؛ لأن السبر في لغة العرب هو الاختبار.

والأصوليون يستعملون هذا الدليل في استنباط علة الحكم الشرعي بطريق من طرق الحصر، ثم يبطلون الباطل منها بطريق من طرق الإبطال المعروفة عندهم، ويبقون الصالح منها للتعليل كما هو معلوم في محله.

والمنطقيون يستخدمون هذا الدليل لغرض آخر وهو استنتاج وجود النقيض من عدم نقيضه، أو عدمه من وجوده، أو استنتاج عدم الضد من وجود ضده، ونحو ذلك كما هو مفصل في أقسام قياس الشَّرْطِي المنفصل الثلاثة، كما هو معلوم في محله.

والجدليون يستعملون هذا الدليل لإفحام الخصم وإقناع القاصر عن الدليل، فيحصرون الأوصاف ويسبرونها بعد الحصر فيتبين صحيحها من فاسدها، وسنذكر هنا أربعة أمثلة لهذا الدليل في القرآن العظيم كل واحد منها فيه إفحام لبعض المجادلين من الكفار:

الأول منها: قوله تعالى رداً على الذين قالوا: ﴿أَجْعَلِ آلَهُةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الآية [ص: ٥] ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخُلُقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الطور: ٣٥] فكأنه يقول لهؤلاء المنكرين توحيدهم في عبادته: لا يخلو الأمر بالتقسيم الصحيح من واحدة من ثلاث حالات: الأولى: أن يكونوا خُلِقُوا من غير خالق خلقهم أصلاً، الثانية: أن يكونوا خُلِقُوا أنفسهم، الثالثة: أن يكون لهم خالق غير أنفسهم هو ربهم ومعبودهم الواحد جل وعلا. وإذا رجعنا إلى هذه الأقسام الثلاثة: التي انحصرت فيها الأوصاف بالسبر وجدنا الأولين منها باطلين بطلاناً ضرورياً لا يحتاج إلى دليل، فتعين صحة القسم الثالث وهو أنهم خلقهم خالق هو ربهم ومعبودهم، فدلالة هذا السبر والتقسيم على عبادة الله وحده قطعية، وقد عُرف في الآية القسم الصحيح من الأقسام لظهوره؛ ولأنه ذكر في آيات أخرى.

«وحذف ما يعلم جائز»^(١)

المثال الثاني والثالث: هما المذكوران في سورة البقرة وسورة مريم، فإن الله - تعالى - أبطل في كل واحدة من السورتين الكريمتين المذكورتين مقالة كاذبة بهذا الدليل بعينه، وحذف في كلا الموضوعين بعض الأقسام، وما حُذف في كل واحد منهما أثبت في الآخر ليدل الثابت على المحذوف في كل الموضوعين. أما المقالة التي كذبها الله - جل وعلا - بهذا الدليل في سورة البقرة: فهي قول اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ فقد قال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] فكأنه يقول لهم: لا يخلو مستندكم في دعواكم أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة من واحدة من ثلاث حالات: الأولى: أن يكون الله أعطاكم عهداً بذلك، فإنه لا يخلف

(١) من ألفية ابن مالك (ص ١٨) وهو جزء من بيت، وتمامه:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما.

الميعاد، الثانية: أن تكونوا اطلعتم على الغيب فعلمتم أن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة، الثالثة: أن تكونوا قلت ذلك افتراء وكذباً على الله. وإذا رجعنا إلى الأقسام الثلاثة وجدنا الأولين باطلين بطلاناً ضرورياً، فتعين صحة الثالث وهو أنهم قالوا ذلك كذباً وافتراء دون علم، وقسم اطلاع الغيب المحذوف في آية البقرة هذه مذكور في مريم في الدليل المذكور بعينه في رده تعالى بالدليل المذكور على العاص بن وائل^(١) في قوله له: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهِ شَأْنٌ﴾ [مريم: ٧٧] فإن الله قال رداً عليه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]، [٧٩] فحذف في مريم القسم الصحيح الذي هو أن الجميع كاذبون المشار إليه في البقرة بقوله: ﴿أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فالحاصل أن التقسيم الصحيح يحصر الأوصاف في ثلاثة: هي العهد من الله بذلك، واطلاع الغيب، والكذب على الله، واثنان باطلان، وواحد صحيح بالسبر الصحيح، وقسم اطلاع الغيب محذوف في البقرة مثبت في مريم، وقسم الكذب محذوف في مريم مثبت في البقرة، فكان المثبت دليلاً على المحذوف في كلا الموضعين.

وسنذكر الآن إن شاء الله تعالى أثرين تاريخيين من آثار هذا الدليل العظيم:

الأول منها: أثره في العقائد، وذلك هو ما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد وغيره مما يدل على أن أول مصدر تاريخي لكبح جماح المحنة العظمى - أعني محنة القول بخلق القرآن - هو هذا الدليل العظيم؛ وذلك أن محنة القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون واستمرت في

(١) نزول الآية فيه أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهِ شَأْنٌ﴾. حديث رقم (٤٧٣٢)، (٤٢٩/٨)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح. حديث رقم (٢٧٩٥)، (٢١٥٣/٤).

شدتها على ساق وقدم أيام المعتصم والوائق حتى أزالها الله على يد المتوكل، وقد عُرف في التاريخ ما أصاب العلماء فيها من الأذى والضرب والقتل حتى اضطر كثير منهم إلى المداهنة بالقول خوفاً، وقد ضرب فيها سيد المسلمين في زمانه الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً - في أيام المعتصم ضرباً مبرحاً كما هو معلوم، وقد ذكر الخطيب في تاريخ بغداد في كلامه على ترجمة أحمد بن أبي دؤاد من طريق محمد بن الوائق ما ملخصه: قال: كان أبي إذا أراد قتل إنسان أحضرنا فجيء بشيخ مكبل بالحديد يريدون قتله - يعني في محنة القول بخلق القرآن - فقال للوائق: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لا سلمك الله. فقال الشيخ: بئسما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مَنَهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦] والله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها. وقال الوائق: ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه - يعني ابن أبي دؤاد - وقال الوائق لابن أبي دؤاد: كلم هذا الشيخ وناظره. فقال ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: ما أنصفتني - يعني ولي السؤال - فقال له ابن أبي دؤاد: سل. فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق، فقال الشيخ: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون^(١) [عالمين بها أو غير عالمين؟ فقال: غير عالمين. فقال: سبحان الله!! شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟ قال: فخرج!! فقال: أقلني والمسألة بحالها، قال: نعم] ثم قال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق. فقال الشيخ: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ أو شيء جهلوه؟ فقال ابن أبي دؤاد:

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين زيادة يتم بها الكلام. انظر: تاريخ بغداد (٤/١٥٢).

هذا شيء علموه فلم يدعوا الناس إليه . فقال له الشيخ : هلاً وسعك ما وسعهم؟
فقام الواثق إلى محل خلوته واضطجع وجعل يقول : سبحان الله شيء لم يعلمه
رسول الله ﷺ ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟ سبحان الله شيء علموه ولم
يدعوا الناس إليه ألم يسعك ما وسعهم؟ وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن
بعد ذلك أحداً ، وأمر بفك القيود عن الشيخ وإعطائه مالاً والإذن له بالانصراف
إلى أهله . وهذه القضية وإن كانت أسانيدھا لا تخلو من بعض من لا يُعرف فهي
مشهورة عند العلماء متلقاة منهم بالقبول ، والاحتجاج بها صحيح لا شك فيه .
ومضمون احتجاج هذا الشيخ على ابن أبي دؤاد هو هذا الدليل العظيم فكأنه
يقول : لا يخلو الأمر بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين : إما أن يكون النبي
وخلفاؤه الراشدون كانوا عالمين بمقالتك هذه ، وإما أن يكونوا كانوا جاهلين
بها ، ثم رجع بالسبر الصحيح إلى القسمين فبين أن ابن أبي دؤاد مرتكب غير
الصواب على كل تقدير ، فعلى أنهم كانوا عالمين بها ولم يدعوا الناس إليها فله
فيهم أسوة في عدم الدعوة إليها ، ولا شك أنه يسعه ما وسعهم ، وعلى أنهم
كانوا غير عالمين بها فدعوا هو أنه عالم بما لم يعلموا أمرها واضح .

ومن آثار هذا الدليل التاريخية الأدبية : ما ذكره أن عبد الله بن
همام السلولي وشى به واش إلى ابن زياد فدعا ابن زياد ابن همام السلولي
وقال : ما حملك على أن تقول في كيت وكيت؟ فقال : أصلح الله الأمير
والله ما قلت شيئاً من ذلك!! فأحظر ابن زياد الواشي وقال : هذا أخبرني
أنك قلته . فسكت ابن همام هنيهة ثم قال مخاطباً للواشي :

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

فقال ابن زياد : صدقت ، وطررد الواشي ، ولم يصدر منه سوء
للسلولي^(١) والبيتان مضمنان هذا الدليل المذكور ، فكأنه يقول : لا تخلو

(١) انظر : مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٢٧/١٤).

بالتقسيم الصحيح من أحد أمرين: إما يكون ائتمنك على سر فأفشيته، وإما أن تكون قلت ذلك عليه كذباً وبهتاناً، ورجع بالسبر الصحيح إلى القسمين فوجد الواشي مرتكباً ما لا ينبغي على كل تقدير؛ لأنه إما خائن لأمانته أو كاذب ذو بهتان، فإذا عرفت هذا الدليل ورأيت بعض أمثله في القرآن وبعض آثاره التاريخية فاعلم أنا نريد الآن أن نوضح به الموقف الطبيعي للإسلام من الحضارة الغربية: اعلم أولاً أن الحضارة الغربية قد دل الاستقراء التام القطعي الصحيح على أن منها ما هو نافع غاية النفع لا غنى عنه للبشر في ميادين الحياة في حالاتها الراهنة وتطوراتها المتتابة وذلك ما خدمت به الإنسان من حيث إنه جسد، فقد خدمت الإنسان من ناحية عنصره الجسدي خدمات هائلة ما كانت تدخل في تصور البشر وتقدمها المادي - في جميع النواحي والميادين - والتنظيمي أظهر من أن يحتاج إلى التنويه عنه، ومنها ما هو ضار غاية الضرر وهو عام بجميع اتجاهاتها الروحية، وهي غنية من جهة الناحية المادية مفلسة من الناحية الروحية، وطغيان المادة على الروح يهدد البشر بخطر داهم، ومن المعلوم أن الإنسان مركب من عنصرين مختلفين في الحقيقة والمفهوم والصفات النفسية، وباختلاف جوهريهما تختلف متطلباتهما، فللجسم متطلبات وللروح متطلبات، ولا يسد أحدها مكان الآخر، فالحضارة استطاعت تحصيل متطلبات الجسم وعجزت عن تحصيل متطلبات الروح، والعالم إن لم تدبره الروح المهذبة المرباة تربية سماوية على ضوء الوحي الصادر من خالق السموات والأرض كان في خطر وقلق دائمين؛ لأن الروح البهيمية من طبيعتها الافتراس والابتزاز والظلم مهما قدرت، وآثار عدم التربية الروحية الصحيحة ظاهرة في أقطار الدنيا من الكوارث والمصائب وأنواع الظلم الفادح الواقع على كل دولة ضعيفة وكل شعب ضعيف كما لا يخفى.

والذي نريد أن نقوله هنا: هو أن التقسيم الصحيح يحصر موقف الإسلام من الحضارة الحالية في أربعة أقسام لا خامس لها ألبتة:

الأول: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثاني: تركها كلها نافعها وضارها.

الثالث: أخذ ضارها وترك نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

فنرجع إلى هذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح فنجد ثلاثة أقسام منها باطلة وواحد صحيحاً، أما الثلاثة الباطلة:

فالأول منها: هو أخذها كلها؛ لأن ما فيها من الكفر والإلحاد والانحطاط الخلقي والتمرد على خالق السموات والأرض أوضح من أن ننوه عنه، ولا يقول بأخذه إلا مطموس البصيرة طمساً كلياً.

والثاني من الأقسام الباطلة: تركها كلها؛ لأن ما فيها من التقدم المادي والتنظيمي لا يصح التفريط فيه؛ لأن ذلك يؤدي إلى العجز الدائم والتواكل والتكاسل، ويخالف الأمر السماوي في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والثالث من الأقسام الباطلة: أخذ ضارها وترك نافعها، وهذا لا يفعله من يصدق عليه اسم العاقل.

الرابع وهو القسم الصحيح: أخذ النافع منها وترك الضار، وذلك بالسعي البالغ في تحصيل ما اشتملت عليه من الانتاجات المادية والتنظيمية، وقضية تحصيل ذلك ممكنة مع الجد لا مستحيلة، مع التباعد الكامل عن ما جنته من الكفر والإلحاد والتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون - جل وعلا - على لسان سيد البشر - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك كان النبي ﷺ يفعل فإنه لما حاصره الأحزاب في غزوة الخندق وقال له سلمان: «كنا إذا خفنا خندقنا»^(١) انتفع في دنياه بتلك الخطة العسكرية - التي هي حفر الخندق - ولم يمنعه من ذلك أن

(١) تقدم في المحاضرة الثانية.

الأذهان التي ابتكرتها أذهان كفار مجوس يعبدون النار. وقد هم ﷺ أن يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يظنون أن وطء المرضع يضر بولدها ويضعف عظمه، وفي ذلك يقول شاعرهم^(١):

فوارس لم يغالوا في رضاع فتنبو في أكفهم السيوف
فأخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، فأخذ ﷺ تلك الخطة الطيبة من الكفار، ولم يمنعه من الانتفاع الدنيوي بها أنهم كفار. وقد انتفع ﷺ في سفر الهجرة بخبرة عبد الله بن الأريقط الدؤلي حين دله على الطريق حتى وصل المدينة بسلام^(٢)، ولم يمنعه من الانتفاع بخبرته الدنيوية كونه كافراً، وفي المثل: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار». ومن المؤسف أن أكثر المثقفين في الأقطار الإسلامية في جميع أنحاء الدنيا يعكسون القضية فيأخذون من حضارة الغرب كل ما فيها من إفلاس روحي، وانحطاط خلقي، وإلحاد كفري، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون، في الوقت الذي لم يحصلوا فيه على شيء من إنتاجاتها المادية والتنظيمية فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفروالإفلاس بالرجل^(٣)

فدين الإسلام دين التقدم في جميع ميادين الحياة، ودين تهذيب الروح التقدمية وتصفيتها من الأمراض المخلة بمعنى إنسانيتها على ضوء تعليم خالق الكون - جل وعلا - ومن أراد بعض الأمثلة الرائعة على جمع الإسلام بين التقدم في الميادين والمحافظة على الآداب الروحية السماوية

(١) تقدم في المحاضرة الثانية.

(٢) كما في البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم (١٣٠٥)، (٧/٢٣٠).

(٣) تقدم في المحاضرة الثانية.

فليقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠٢] فإنك تراه ينظم الخطة العسكرية أحسن تنظيم وأدقه في الوقت الذي يحافظ فيه على ذلك الأدب الروحي السماوي في وقت التحام الكفاح المسلح والرؤوس تنزل عن الأعناق، ألا وهو الصلاة جماعة في ذلك الوقت الضنك، وقرأ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعَةً فَاتَّبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥] فتراه يأمر بذكر الله وتقوية الصلة به - جل وعلا - عند التقاء الصفيين في ميدان القتال، ومن ذلك ما يعتقد الكثيرون من أن الإيمان ليس بسلاح يُقاوم كل سلاح مهما بلغ من التطور، فزريد هنا أن نلقي الضوء على أن الإيمان هو أعظم سلاح كما شهد بذلك التاريخ القرآني، ألا ترون أن النبي ﷺ لما حاصره هو وأصحابه الأحزاب ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾﴾ هُنَالِكَ أُبْتِلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] وجميع أهل الأرض في ذلك الوقت يقاطعون النبي وأصحابه سياسة واقتصاداً وفي الوقت نفسه غدرت يهود قريظة فلم يبق للمسلمين في ذلك الوقت من أهل الأرض صديق ولا معين، ألا ترون أنهم لم يقاوموا هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم في هذا الموقف الحرج إلا بسلاح الإيمان الصادق وصدق الالتجاء إلى الله - جل وعلا - كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقد كان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الخالص لله - جل وعلا - ما قصه الله علينا في كتابه في قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥، ٢٦]

يعني من حصونهم ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧] وهذا الذي نصرهم الله به ما كان بحسبانهم ولا ظنهم كما قال تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩] ولما علم الله - جل وعلا - من أهل بيعة الرضوان ذلك الإيمان والإخلاص الذي نوه عنه بالاسم المبهم الذي هو اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١٨] أي من الإيمان والإخلاص، كان من نتائج ذلك الإيمان ما ذكره في قوله: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢١) [الفتح: ٢١] فصرح بأن إمكانياتهم العددية والعُدوية لا تقدرهم عليها فأقدرهم الله عليها لإخلاصهم وإيمانهم.

وفي الختام نقول: إن دين الإسلام صالح لتنظيم أحوال البشرية في جميع أطوارها واتجاهاتها، ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع ثلاثة: الأولى درء المفسد، والثانية جلب المصالح، والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ودين الإسلام متضمن من المحافظة على تلك المصالح ما لا يخفى إلا على جاهل، ومعلوم أن المفسد التي يُحَاوَلُ درؤها عن البشر واردة على ستة أشياء على حفظها مدار العدالة والإنصاف في هذه الحياة الدنيا:

الأول منها: الدين، فظلم الإنسان بإضاعة دينه وإفساد عقيدته هو أعظم أنواع الظلم.

والثاني: النفس.

والثالث: العقل.

والرابع: النسب.

والخامس: العرض.

والسادس: المال.

فما في الدين الإسلامي من الأمر بإدخال الناس في الدين بكل الوسائل وقتل المرتدين عنه والزنادقة المضللين ونحو ذلك كله محافظة على دين الإسلام.

ومحافظته على الأنفس معروفة، ومن أجلها شرع القصاص ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ومحافظته على العقول معروفة، ومن أجلها حُرِّمَ شرب الخمر، وأوجب الحد الرادع في ذلك ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ...﴾ الآية [المائدة: ٩٠] «كل مسكر حرام»^(١) ومحافظته على الأنساب معروفة ولأجلها

- (١) هذه الجملة رواها عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم منهم:
- ١ - عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم (٢٠٠٣)، (١٥٨٧/٣).
 - ٢ - أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيد ولا المسكر، برقم (٢٤٢)، (٣٥٤/١)، وأطرافه في (٥٥٨٥)، (٥٥٨٦)، ومسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام. برقم (٢٠٠١)، (١٥٨٥/٣) بلفظ (كل شراب أسكر فهو حرام).
 - ٣ - جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم (٢٠٠٢)، (١٥٨٧/٣).
 - ٤ - أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، برقم (٤٣٤٣، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥)، (٦٢/٨)، وأطرافه في (٦١٢٤، ٧١٧٢)، وأخرجه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، برقم (١٧٣٣)، (١٥٨٦/٣).
 - ٥ - بريدة رضي الله عنه أخرجه مسلم في الأشربة، باب النهي عن الانتباز في المزفت. حديث رقم (٩٧٧)، (١٥٨٥/٣).
- وفي الباب - في غير الصحيحين - عن ابن مسعود، وأشج عبد القيس، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأبي وهب الجيشاني، ووائل بن حُجر، وابن عباس، وأنس، وعبد الله بن عمرو، وقيس بن سعد بن عبادة، وبريدة، وفيروز بن الديلمي، وأبي سعيد الخدري، وعلي، وعبد الله بن المغفل، وقرة بن إياس، وميمونة رضي الله عنهم أجمعين.

شرع تحريم الزنا لئلا تختلط أنساب المجتمع، وأوجب الحد فيه ﴿وَلَا
 تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٣) [الإسراء: ٣٢] ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي
 فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ الآية [النور: ٢] ومن أجل المحافظة على النسب
 أوجب العدة على النساء عند المفارقة لئلا يختلط ماء رجل بماء رجل آخر
 في رحم امرأة ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٨]
 ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤] ومن أجل
 ذلك منع سقي زرع الرجل بماء غيره، فمنع نكاح الحامل حتى تضع حملها
 ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. ومحافظة على
 الأعراض معروفة، ومن أجلها شرع حد القذف مع رد شهادة القاذف
 والحكم بتفسيقه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ
 جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) [النور: ٤]،
 [٥] ومحافظة على المال معروفة، ومن أجلها أوجب حد السرقة ﴿وَالسَّارِقُ
 وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ الآية [المائدة: ٣٨] فتلك اليد التي خلقها الله
 وجعلها بديع صنعه في غاية الاستعداد إلى مزاولة الأعمال النافعة لتكون
 أداة فعالة في نفع الدنيا والآخرة لما مدت أصابعها الخائنة الخسيسة إلى
 هذه الرذيلة التي هي في غاية الانحطاط والخسة أمر الله بإزالتها كعملية
 تطهيرية كإزالة عضو فاسد لتصح بإزالته بقية البدن؛ ولذلك إذا قطعت يد
 السارق طهر جميع بدنه من النجاسة المعنوية الروحية التي لطخته بها تلك
 اليد الخائنة، وقد ثبت في الصحيحين^(١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه
 أن الحدود الشرعية كفارات ومطهرات من تلك الرذائل كما هو معروف،
 ومحافظة دين الإسلام على جلب المصالح معروفة، ألا ترون أن أطول آية
 في المصحف الشريف هي آية الدين؟ فانظروا كيف علم الله خلقه فيها
 كتابة الوثائق وإشهاد البيئات؛ لئلا يضيع كبير ولا صغير من أموالهم، وفتح

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب: الحدود كفارة. حديث رقم: (٦٧٨٤)، (٨٤/١٢)،
 ومسلم في الحدود، باب: الحدود كفارة لأهلها. حديث رقم (١٧٠٩)، (٣/١٣٣٣).

لهم الأبواب، ورسم لهم الخطط الحكيمة لاستجلاب ما ينفعهم من جميع النواحي، وأمرهم بمكارم الأخلاق وحسن المعاملات، وبين لهم أصول الاقتصاد، ومن المعلوم عند جميع العقلاء أن مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصليين: الأول: حسن النظر في طريق اكتساب المال، والثاني: حسن النظر في صرف المال في مصارفه، والدين يوضح ذلك كله على ضوء تنظيم خالق البشر لوجوه الاكتساب ووجوه الصرف في حدود معروفة معينة، فيمنع الاكتساب المنطوي على ما لا ينبغي، كقوله: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] ومنع الصرف فيما لا ينبغي، كقوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦] والقصد الإشارة إلى رؤوس أقلام من المسائل؛ لأن المقام لا يسع كمال البحث.

وتبين أن دين الإسلام هو الرابطة العظمى التي تجمع المفترق، وتؤلف المختلف، وتلم الشعث، فتجعل بعضنا أولياء بعض، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وتجعل الله ولينا، والصالحين منا أولياء الله، وكذلك الرسول ﷺ ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وتجعل الملائكة أولياءنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾... إلى قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [فصلت: ٣١] ولأجل هذه الولاية الإيمانية بيننا وبينهم دعوا لنا ذلك الدعاء القرآني العظيم ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] إلى آخر الدعاء، ويبين لنا أن جميع الروابط تتلاشى أمام هذه الرابطة السماوية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] إذ لا رابطة نسبة أعظم من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقد رأيت تلاشيها أمام رابطة الإيمان، فالدين

الإسلامي مع ذلك لا ينكر أصل الروابط، ولا يريد إذابة الأسرة النسبية وأواصر القربات، فقد خصص بالميراث القرباء مراعاة لتلك الرابطة، وأوجب صلات الأرحام وشدد في قطعها مراعاة لتلك الرابطة، ولا ننكر أن الله - جل وعلا - قد نفع بعض رسله الكرام بعصبيات نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وجعل لذلك آثاراً حسنة على الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿الْمَ يَحِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] يعني آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب وذلك بعصبة نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وقد بين الله لنبيه أن ذلك منة منه عليه، ومن آثار تلك القرابة النسبية قول أبي طالب^(١):

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فقد عرف النبي ﷺ هذه القرابة النسبية لبني المطلب بن عبد مناف فإنهم ناصروا الهاشميين مناصرة عصبية لا دينية كما هو معلوم؛ ولذلك لما قسم ﷺ خمس غنيمة خيبر جعل نصيب ذي القربى من الخمس لبني هاشم وبني المطلب، ومنع منه إختهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل؛ لأن أولاد عبد مناف بن قصي أربعة: هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل، ولما جاء عثمان بن عفان وجبير بن مطعم يكلمان النبي ﷺ في إعطائه بني المطلب من الخمس دون بني عبد شمس وبني نوفل بين لهم أن المطلبيين لم يفترقوا مع الهاشميين في جاهلية ولا إسلام^(٢)، ومعلوم أن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف. وقد قال أبو طالب في لاميته المشهورة^(٣):

(١) البداية والنهاية (٤٢/٣).

(٢) كما في البخاري: فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام، حديث رقم (٣١٤٠)، (٢٤٤/٦)، وأطرافه في (٣٥٠٢، ٤٢٢٩).

(٣) وهي في البداية والنهاية (٥٣/٣ - ٥٧)، الأضواء (٣٦٣/٢).

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً
بميزان قسط لا يخيس شعيرةً
عقوبة شر عاجل غير آجل
له شاهد من نفسه غير عائل

وقد نفع الله بالرابطة النسبية نبيه شعيباً ونبيه صالحاً، قال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَشْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١] وقال في قوم صالح: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل: ٤٩] ولما كان لوط ليس له في قومه عصبه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال ذلك الكلام المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فالإسلام هو رابطتنا الحقة التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولا ينافي ذلك أن لكل منا بعض الروابط الخاصة في حدود الدين الحنيف، فإذا به معنى الأسرة إذابة كلية أقرب إلى الشيوعية منه إلى الإسلام، أما رابطة الإسلام فهي التي يُنادى بها، ولا يجوز أن يُنادى بغيرها محاولة للقضاء على الروابط السماوية التي هي الرابطة حقاً، وكل تضامن يخالفها فهو باطل، والله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] أي: لئلا يتعصب كل شخص.





الرابعة الإيمانية



(١) / السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

أما بعد: فإن رابطة الإسلام التي جمعتنا بكم في هذا السفر البعيد هي أعظم رابطة، ونحن دائماً في المناسبات نبين أنها أقوى من رابطة النسب، والدليل على أن رابطة الإسلام أقوى من رابطة النسب أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] لأن أقرب العصابات الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، كما أننا نبين دائماً بالمناسبات أن رابطة الإسلام لقوتها ربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الخلق والخالق؛ ولذلك كان الله ولي المؤمنين من أجل رابطة الإيمان، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ الآية [المائدة: ٥٥] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [محمد: ١١] هذه الآيات تبين أن الله هو ولي المؤمنين؛ لقوة رابطة الإيمان، كما بين أن المؤمنين أيضاً المتقين أولياء الله، قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] ثم بين أن سبب ولايتهم لله هو الإيمان والتقوى حيث قال بعد قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] مبيناً أولياء الله، قال الله في ذلك: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] ولأجل هذه الرابطة العظمى رابطة الإسلام كان النبي ﷺ ولي المؤمنين؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥]. ويقول: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. كذلك هذه الرابطة جعلت الملائكة أولياء المؤمنين، قال الله تعالى في

(١) من الشريط السادس.

ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] ولأجل هذه الرابطة القوية - رابطة الإيمان - التي ربطت بين بني آدم والملائكة فوق السموات من شدة ربطها عطفت قلوب الملائكة من فوق سبع سموات على بني آدم في الأرض، ودعوا لهم بذلك الدعاء العظيم المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فوصف الملائكة بالإيمان ثم قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فوصف الأدميين بالإيمان فعرف من ذلك أن الرابطة بين الأدميين والملائكة: الإيمان، كان من نتائج ذلك الرابط - وهو الإيمان - أن دعوا للأدميين كما ذكره الله عنهم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ الآيات [غافر: ٧، ٨]. هذه الرابطة عطفت علينا قلوب الملائكة من فوق سبع سماوات مع اختلافنا معهم في الأصل والعنصر، فدل ذلك على أنها تربط بيننا ونحن أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ربطاً وثيقاً؛ ولأجل ذلك بين النبي ﷺ أن جميع المسلمين في أقطار الأرض من مشارقها ومغاربها وجنوبها وشمالها كأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فعلياً أن نتساعد ونتعاون في الخير، وأن نحافظ على أعمالنا حتى تكون صالحة ترضي الله، وقد بين لنا الله في كتابه أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فالعمل صالح، وإذا اختل واحد منها فالعمل غير صالح:

الأول من هذه الأمور الثلاثة هو: أن يكون ذلك العمل مطابقاً لما جاء به سيدنا محمد ﷺ؛ لأن الله يقول في هذا: ﴿وَمَا ءَانِكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهكم عنه فأنهوا﴾ [الحشر: ٧] ويقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ

أَطَاعَ اللَّهَ ﴿ [النساء: ٨٠] ويقول: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

الثاني من تلك الأمور الثلاثة: هو كون العمل فيما بين الإنسان وبين ربه في نيته التي لا يعلمها إلا الله خالصاً لوجه الله، لا لقصد غرض دنيوي، ولا مال ولا جاه؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] ويقول: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

الأمر الثالث: أن يكون العمل مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٤] فقيّد العمل بالإيمان، ثم بين أن الأعمال الصالحة من غير المؤمنين باطلة، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى في أعمال الكفار في آية: ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال في آية أخرى: ﴿ أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ [النور: ٣٩] فتبين مما قلنا أن على المؤمن أن يتحافظ على هذه الأمور الثلاثة، فيكون عمله مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، ويكون على أساس العقيدة الصحيحة، وخير ما تؤخذ منه العقيدة الصحيحة: القرآن العظيم، كما بينه الشيخ عثمان فودي في أول كتابه إحياء السنة، فعلينا أن نثبت ما أثبتته القرآن، وأن ننفي ما نفاه القرآن، وأن نسكت عما سكت عنه القرآن لنهتدي دائماً بكتاب الله.

ومما دلنا القرآن عليه: أنا لا نأمن مكر الله؛ لأن الله يقول: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] وأن نخاف من الله، وإذا كان أحدنا عنده أسلاف صالحون لا نتكل على ذلك؛ لأن الإنسان بحسب عمله، والله يقول: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤] من ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴿

وسنضرب أمثالاً في القرآن؛ لأن الإنسان لا يتكل إلا على الله ثم على عمله: أفضل البشر على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ، وأبو طالب عمه الذي رباه لما حضرته الوفاة كما ثبت في صحيح مسلم والبخاري - وذلك أصح الصحيح - جاءه النبي ﷺ فقال: يا عم قل لي كلمة أشهد لك بها عند الله، فأنزل الله عليه جبريل بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) (١) [القصص: ٥٦] (...). (٢).



(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...﴾، حديث رقم (٤٧٧٢)، (٥٠٦/٨)، وأطرافه في (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٦٦٨١)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع. حديث رقم (٢٤)، (٥٤/١).

(٢) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وقد تقدم كلام الشيخ رحمه الله على هذا الموضوع ضمن المحاضرة رقم (٤)، وسيأتي أيضاً في المحاضرة رقم (٦).



(الرابطة الإيمانية)



(١) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

نريد في هذا الاجتماع المبارك أن نبين أمام إخواننا العلماء الأفاضل جُملاً من محاسن دين الإسلام.

أولاً: نبين أن رابطة الإسلام هي أعظم جميع الروابط؛ لأن الروابط ما عداها إنما هي حول أمور دنيوية، كرابطة النسب، ورابطة الصداقات، وروابط التجارات، وغير ذلك من الروابط الأرضية، أمّا رابطة الإسلام وحدها فهي في الله الذي خلق السموات والأرض، وما كان في خالق السموات والأرض فلا شك أنه أعظم مما سواه، ونحن دائماً - في المناسبات - نبين أن رابطة الإسلام - لشدة قوتها - ربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الخالق والمخلوق، ومن أجلها كان الله وليّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [محمد: ١١]، وولاية الله للمؤمنين التي ذكرناها الآن إنما هي بقوة رابطة دين الإسلام وهذه الرابطة جعلت المؤمنين المتقين أيضاً أولياء الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ثم بين أولياء الله من هم فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣] فكون المؤمنين المتقين أولياء الله، وكون الله وليّ المؤمنين، كل هذا من رابطة دين الإسلام؛ ولأجل هذه الرابطة كان النبي ﷺ وليّ المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] هذه الولاية بين المسلمين وسيّد الخلق

(١) من الشريط العاشر.

محمد ﷺ التي بيّناها الآن في القرآن إنما هي بقوة رابطة الإسلام، وهذه الرابطة جعلت المؤمنين في أقطار الدنيا بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [التوبة: ٧١] ولقوة هذه الرابطة ربطت بين بني آدم في الأرض وبين الملائكة الكرام من فوق سبع سموات، كما نصّ الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ١٠] فوصف حملة العرش فوق سبع سموات بأنهم يؤمنون بالله، ثم بين من نتائج ذلك ما نصّ عليه في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، فوصف بني آدم بالإيمان أيضاً، فعلم من الآية أن الرابطة بين الملائكة وبين الآدميين هي الإيمان، كان من نتائج هذه الرابطة أن دعوا - الملائكة - للآدميين هذا الدعاء العظيم الذي ذكره الله في القرآن العظيم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ إلى آخر الآيات [غافر: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١] فقول الملائكة للآدميين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ﴾ تلك الولاية فيه برابطة دين الإسلام، فإذا تبين من هذه الآيات القرآنية أن رابطة الإسلام لشدة قوتها ربطت بين الخلق والخالق، وبين الأمة والرسول العظيم، وبين الآدميين الملائكة؛ فإن ذلك يدل على أنها تربط بيننا - معاشر المسلمين - لأننا أولاد رجل واحد وامرأة واحدة، كما يبين لنا ربنا في القرآن العظيم في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] فهذه الرابطة التي ربطت بين الملائكة والآدميين مع اختلافهم في العنصر، واختلافهم في المكان، واختلافهم في الاتجاهات والميول، لا شك أنها تربط أقوى الربط بين المسلمين الذين هم جنس واحد من رجل واحد وامرأة واحدة، فعلينا ألا نضيع هذا الربط السماوي العظيم الذي جعله الله بيننا بسبب تشريع رب العالمين، فيجب علينا أن

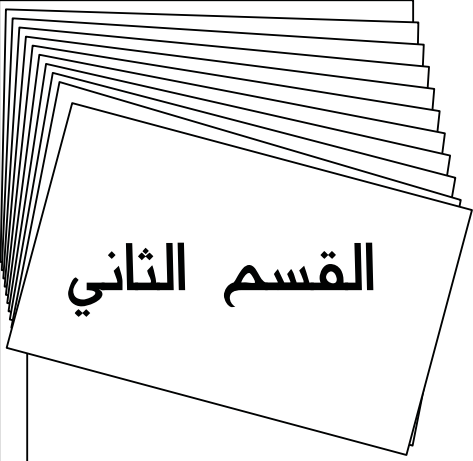
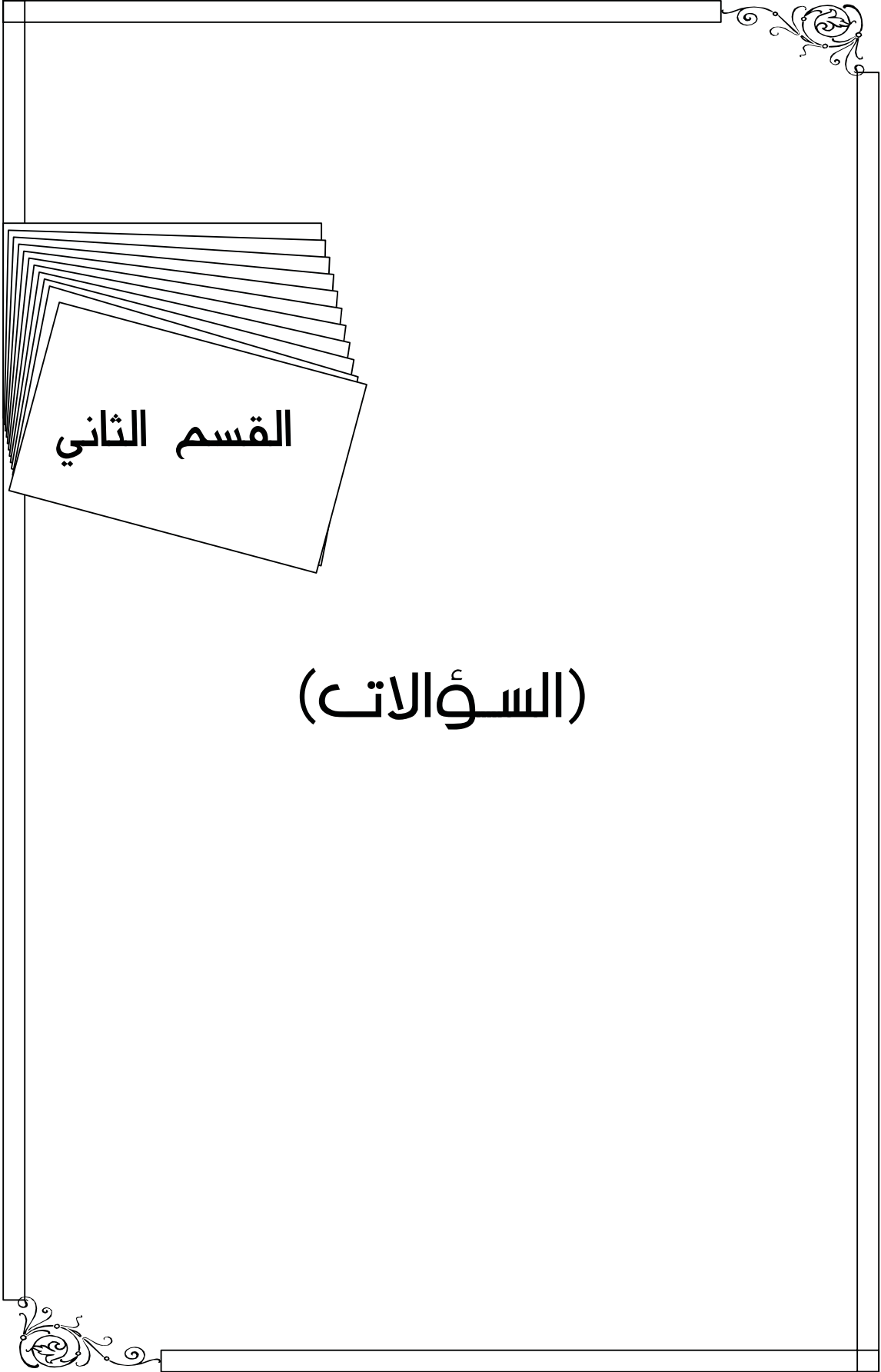
نتعاون ونتعارف ونتساعد على توجيه المسلمين، ورفع مستوى دين الإسلام؛ لتكون كلمة الله هي العليا، ومما يدعونا إليه دين الإسلام: أن نترك الخلافات والنزاعات، ونكون يداً واحدة على الخير؛ لأن الاختلاف والمنازعات يؤدي للفشل وضياع القوة، والله يقول في كتابه العظيم: ﴿وَلَا تَنزَعُوا فَنفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد بين القرآن العظيم في سورة الحشر أن الاختلاف والنزاعات سببها ضعف العقل، ذلك في قوله تعالى في قوم كانوا مختلفين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، ثم بين العلة فكان قائلاً قال: ما العلة في كون قلوبهم شتى؟ قال الله مبيناً تلك العلة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] فأية سورة الحشر هذه التي قال الله فيها: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هي دليل على أن منشأ الاختلافات إنما هو ضعف في العقل؛ لأن العاقل يعلم أن الاتفاق خير من الاختلاف؛ فإذا اتفقت أنت وأخوك كانت جهوده معك، وإذا اختلفتما كانت جهود كل منكما ضد الآخر، وضعف العقل إنما يداوى بدواء القرآن؛ لأن القرآن نور، يقول الله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، ويقول: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا النور القرآني هو الذي يكشف ظلام الجهل، ويبين الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، والله يقول في كتابه: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذه الآية بينت أن دين الإسلام حياة بعد الموت، ونور بعد الظلام، فعلينا أن نستضيء بهذا النور - نور القرآن العظيم - ونرى الحق في باطنه حقاً، والباطل باطلاً، ونميز بين ما يضر وما ينفع، والسبب الأساسي لذلك أن نتحد ونكون إخواناً متعاونين؛ لأن الخلاف هو سبب كل شر، وكل تأخر، وقد يكون العقلاء بينهم اختلاف وجهات نظر، ولكن هذا

الخلاف لا يؤثر؛ لأنّ الأصول العظام لا خلاف فيها؛ دين واحد، وربّ واحد، ونبيّ واحد، وكتابٌ واحد، وقبلهٌ واحدة، كلّنا نستقبل قبلةً واحدة، ونحجّ بيتاً واحداً، ونتلوا قرآناً واحداً، ونؤمن بربّ واحد، ونصدق بالنبي ﷺ، هو رسولنا، وإنا نصدّق بجميع الرّسل ولا سيّما رسولنا محمد ﷺ، فالخلاف في المسائل البسيطة لا ينبغي أن يكون سبباً للتفكك، وعدم المساعدة، والصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يختلفون في بعض المسائل، ولا يؤثر هذا على الاتحاد والجماعة، والأئمة الأربعة رضي الله عنهم مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد يختلفون في بعض المسائل، وذلك لا يؤثر على الألفة والاتحاد. لأن اختلاف وجهات النظر في الفروع لا يؤثر، ولا يتخذ سبباً للافتراق إلاّ الجهلة، أمّا أهل العلم فهذا لا يؤثر عندهم، ولا يفكّك الأخوة الإسلامية السامية، ونحن دائماً نضرب المثل لهذا بصورة هذه الصّورة: أنه ثبت في صحيح البخاري - وهو أصحّ كتاب بعد القرآن - أن النبي ﷺ لما أراد أن يغزو يهود بني قريظة قال: «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»^(١) فأصحاب النبي ﷺ فهموا هذا النص، ولكن اختلفت وجهات نظرهم في فهمه، فقومٌ قالوا: مراد النبي: أننا نسرع إلى خيبر، وليس مراده تأخير الصلاة، فصلوا وأسرعوا إلى النبي ﷺ، وقومٌ آخرون من الصحابة وقفوا مع ظاهر اللفظ ولم يصلّوا العصر إلا بعد العشاء في بني قريظة، فاجتمع الجميع عند النبي ﷺ في الليل بعد العشاء وقد اختلفوا قوم صلّوا في الطريق، وقوم لم يصلّوا إلا بعد العشاء، وهذا خلاف، والنبي ﷺ وفق الجميع وصوّبهم، ولم ينتقد على هذا ولا على هذا، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - لا يقرّر على شيء باطل أبداً، فدلّ على أنّ كلّهم فعل حقاً

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً، حديث رقم (٩٤٦)، (٤٣٦/٢). وطرفه في (٤١١٩)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: المبادرة بالغزو وتقديم أهمّ الأمرين المتعارضين. حديث رقم (١٧٧٠)، (١٣٩١/٣).

غير باطل، وهم مختلفون. فهذه صورة نبوية تبين أن الخلاف في الفروع والاتجاهات في فهم النصوص لا أثر لها، فالذي يتخذها وسيلة للتفكك والخلاف هو يجني على المجتمع، ويجني على الدين، فعلينا جميعاً أن نتفطن لهذا، وأن لا نجعل النزاعات والخلافات واختلاف وجهات النظر سبباً لتفككنا؛ لأننا إذا تفرّقنا لم تكن لنا قوة، هذا مما يرشد إليه دين الإسلام، وهو يرشد إلى جميع الخير في جميع الميادين، وإن شاء الله في الاجتماع القادم سنبين زيادات كثيرة، وأمثلة كثيرة مما يدعو إليه دين الإسلام من الخير والمحاسن.





(السؤالات)

السؤال الأول^(١): قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، ما قول أئمة الفروع من المالكية في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾^(٢)؟ [المائدة: ٣].

الجواب: هذا الخلاف معلوم في هذه الآية، وحاصل هذا المقام أن مثل هذا الذي سأل عنه فضيلة الشيخ ذكر في أربع آيات من كتاب الله، اثنتان منهما: وهي الأولى والأخيرة في كل واحدة منهما زيادة، والوسطيان منهما لا زيادة فيهما. أول ما نزل في هذا: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزْيِرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فحرمت هذه الآية هذه الأشياء، وزادت التقييد بكون الدم مسفوحاً، ثم إن الله حرّم هذه الأشياء الأربعة في سورة النحل، وهي النازلة بعد الأنعام، فسورة النحل نزلت في مكة قبل الهجرة على التحقيق إلا الآيات الأخيرة منها: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، فقد نزلت في تمثيل المشركين بشهداء أحد، وهم حمزة وأصحابه، والدليل على أن النحل نازلة بعد الأنعام في القرآن في موضعين: أحد هذين الموضعين: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨]، والنازل المقصوص المحال عليه من قبل نازل في سورة الأنعام بالإجماع في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٦].

الموضع الثاني من الموضعين: أن الله قال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فبين أنهم

(١) السؤال الأول إلى السادس من الشريط الثاني.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥٠/٦).

سيقولون هذا القول في المستقبل، وأنهم وقت نزول الآية لم يقولوه فعلاً، ثم بين في النحل أن ذلك القول الموعود به وقع تماماً، فتبين أنها بعدها، وذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا﴾ الآية [النحل: ٣٥].

قال في النحل النازلة بعد الأنعام كما بينا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ ولم يزد شيئاً، ثم إنه نزل في البقرة - وهي نازلة في المدينة بالإجماع -: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ولم يزد فيها شيئاً، ثم نزلت سورة المائدة بعد الجميع، نزل بها: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، وذكرت أصناف من أصناف الميتة والمنخفة والموقوذة والمرتدية، وزيد في هذه الاستثناء، فزيد في الآية الأولى: التقييد بالمسفوحية، وزيد في الآية الأخيرة: الاستثناء بالتذكية، وكل منهما يحتاج إلى كلام.

والآن نتكلم على محل السؤال: هذا الاستثناء أصله معروف عند علماء التفسير أن فيه وجهين:

أحدهما: أنه استثناء منقطع، وهو قول القليل، منهم مالك بن أنس، وقول الجمهور: أنه استثناء متصل. والحكم مختلف باختلاف التفسيرين، أما الجمهور الذين قالوا: إنه استثناء متصل، فإنهم قالوا: حرمت عليكم الموقوذة إلا ما أدركتم فيه ذكاة ما وذكيتموه، وحرّم عليكم ما أكل السبع إلا ما ذكيتم ولو أدركتم فيه أدنى شيء يصدق عليه اسم الحياة.

ومالك بن أنس راعى أن الاستثناء منقطع، وكأنه يقول: [(١) حرمت عليكم هذه الأشياء لكن ما ذكيتم فهو الذي لم يحرم]، وعند مالك قول

(١) في هذا الموضع انقطاع يسير في التسجيل، وما بين المعقوفين زيادة من القرطبي (٥٠/٦) يتم بها الكلام.

يوافق الجمهور. قال ابن العربي المالكي: إن قول الإمام مالك في هذا كأنه فيه شبه تناقض؛ لأنه يقول في المريضة: إنها تؤكل وإن يُئس من حياتها يأساً كلياً، ويؤكل المذكي وإن يُئس من حياته. ويقول في التي يُئس من حياتها بالوقد كالتي يتناثر دماغها، أو بأكل السبع كالتي تنتثر حشوتها، ومع أن فيها حركة قوية: أنها لا تُؤكل. قالوا: هذا تناقض؛ لأنك ما دمت أحللت مثل ذلك في المريضة، فكيف لا تحلّه في أكيلة السبع؟ والجمهور على أنّ أكيلة السبع مثل المريضة عند مالك لو أدرك فيها أي حياة لأكلت، وكان بعض العلماء يقول: لو كان كل ما أنفذ مقتله مات لكانت وصية عمر بن الخطاب بجعل الخلافة شورى بين الستة لا تقبل؛ لأنه أنفذ مقتله، والطبيب قال له: أوصي فقد أنفذ مقتلك. وقد أوصى وعُمل بوصيته، وجعل الخلافة شورى بعد نفذ مقتله، جاء ذلك يدل على أن هنالك حياة.

والمالكية يقولون: مثل هذه الحياة كحياة المذبوح، لا نعتبرها حياة في الذكاة، والجمهور يقولون هذا^(١)، وهذا قول مالك، وسبب الاختلاف هو الاختلاف: هل الاستثناء منقطع أو متصل كما بيّنا.

السؤال الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] إباحة صيد الكتابي مطلقاً، فهل الآية التي استدلت بها مالك على تحريم صيده تخصص هذا العموم، أم لا؟ وهي قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤]، وهل خالفه أحد من أصحابه، أم لا؟ وهل وافقه أيضاً أحد من الأئمة أم لا؟^(٢).

الجواب: أمّا هذا فلم يوافق الإمام مالكا فيه أحد من الأئمة الثلاثة،

(١) يقصد الشيخ بهذا: يعني الذي ذكرنا قبل وهو أن ما أدرك منه أدنى ما يصدق من عليه اسم الحياة جازت تذكيتة.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/٦٦٣)، القرطبي (٦/٣٠١).

وخالفه جماعة من أصحابه، وروى عنه ابن بشير أنه مكروه لا حرام، وجمهور العلماء على أن صيد الكتابي كذكاته، وأن ذكاته بالعقر كذكاته بالذبح، وهذا عليه جمهور العلماء، ولم يوافق مالكا فيه أحد من الأئمة الثلاثة، وكثير من أصحاب مالك خالفوه في هذا، وروى بعضهم عنه أنه مكروه كراهة تنزيه، وليس بمحرّم، وقد رواه ابن بشير وغيره، والرواية المشهورة من رواية ابن القاسم أنه حرام، وأن يفرق فيه بين ذكاة العقر وذكاة الذبح، وقد استدل مالك بالآية التي تفضّل بها فضيلة الشيخ؛ لأن الله قال في الصيد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وأضاف الأيدي والرّماح للمسلمين، فعلم من ذلك أنه لا يحل منه إلا ما كان بأيدي أو رماح المسلمين. والجمهور يقولون: إن هذا أصرح منه قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]. وقد أجمع العلماء أن ذبائحهم داخله في ذلك، قالوا: ولا فرق بين العقر والذبح؛ لأن العقر والذبح كلاهما نوع من أنواع الذكاة.

السؤال الثالث: لما كانت زكاة العروض للمدير عند مالك لا يلزم صاحبها أن يزكيها إلا إذا لم يبق له دينار أو درهم، فهل إذا كانت الدراهم والدنانير تباع بالأسواق، وتوجد فيها الأرباح الكثيرة، ولم يشتريها المدير يُعد ذلك فرارا من الزكاة، ويعامل بنقيض قصده أم لا؟ وهل الورق المتعامل فيه اليوم بدل العين تجب فيه الزكاة، أم هو كسائر العُروض؟^(١).

الجواب: أمّا التجارات فجماهير علماء الأمصار، والأئمة الأربعة، والصحابة كلهم مطبقون على وجوب زكاة التجارة^(٢)، ولم يخالف في هذا إلا بعض الظاهرية كابن حزم^(٣)، قال: إنه لا زكاة في التجارة، وإنه لم

(١) انظر: الأضواء (١/٢٥٦).

(٢) انظر: المبسوط (٢/١٩٠)، المحلى (٦/١١٤)، المجموع (٦/٤٧)، المغني (٤/٢٤٩ - ٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٣/٢٦٨)، الأضواء (٢/٤٥٧).

(٣) انظر: المحلى (٦/١١٤).

يقم دليل قائم على زكاة التجارة. والجمهور معهم الحق، استدلوا على وجوب الزكاة في التجارات بأدلة:

أولاً: أنها ورد فيها حديثان مرفوعان إلى النبي ﷺ عن صحابييين^(١)،

(١) أما الأول فحديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: «في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البز صدقته».

أخرجه ابن أبي شيبة (٢١٣/٣)، وأحمد (١٧٩/٥)، والترمذي في العلل الكبير (١/٣٠٧) وعقبه بقوله: «سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس. يقول: حدثت عن عمران بن أبي أنس» اهـ. وابن زنجويه في الأموال (٧٨٣/٢)، والبزار (٣٤٠/٩)، والبيهقي (١٤٧/٤)، والحاكم (٣٨٨/١)، وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه» اهـ. وتعقبه ابن عبد الهادي في التنقيح (٢/١٤٣٨) بقوله: «وفيه نظر» اهـ. وأخرجه الدارقطني (١٠١/٢ - ١٠٢). (بالفاظ متقاربة). والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣٨٨/٢)، (٥٥/٥ - ٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢) أربعة طرق - وهي عند الدارقطني - فضعف - الحافظ - ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به» اهـ. وقال عن هذا الحديث في الدراية (١/٢٦٠): «وإسناده حسن» اهـ. وانظر في الكلام عليه في: تنقيح التحقيق (٢/١٤٣٦ - ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١١/١٤)، نصب الراية (٣٧٦/٢)، أضواء البيان (٢/٤٥٨).

وأما الحديث الثاني: فحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: «أما بعد، فإن رسول الله ﷺ يأمرنا أن نُخرج الصدقة من الذي نُعدُّ للبيع».

أخرجه أبو داود في الزكاة، باب العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم (١٥٤٧)، (٤٢٤/٤)، والدارقطني (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٤٦ - ١٤٧) وفي الصغرى (٣٢٧/١)، والطبراني في الكبير (٧/٢٥٣، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٥/٢٣٤) وقال: «أما حديث سمرة فساقط؛ لأن جميع رواته ما بين سليمان بن موسى وسمرة رضي الله عنه مجهولون لا يُعرف من هم» اهـ. وقال الهيثمي في المجمع (٣/٦٩): «في إسناده ضعف» اهـ. وقال الذهبي في الميزان (١/٤٠٨) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم» اهـ. وقال ابن عبد الهادي في التنقيح (٢/١٤٣٥): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب» اهـ. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبد البر، وضعفه الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢)، والدراية (١/٢٦٠) والألباني في التعليق على المشكاة (١/٥٦٨)، ضعيف أبي داود (ص ١٥٤). وانظر: بيان الوهم والإيهام (٥/١٣٩)، إتحاف المهرة (٦/٣٠)، تنقيح التحقيق (٢/١٤٣٥)، التعليق المغني على الدارقطني (٢/١٢٧ - ١٢٨)، أضواء البيان (٢/٤٥٩ - ٤٦٠).

والواقع في الحقيقة أن كل واحد من الحديثين لا يخلو سنده من كلام، إلا أن الجمهور قالوا: هذان الحديثان - وإن كان كل واحد منهما لا يخلو سنده من مقال - فإنهما قد يعتضد أحدهما بالآخر، ويعتضد ذلك بما ثبت بسند صحيح لا مطعن فيه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه أنه أخذ زكاة الجلود من تاجر يتجر بالجلود^(١). هذا ثابت عن عمر بن الخطاب ثبوتاً لا مطعن فيه، ولم يخالف أحد من الصحابة، فكان إجماعاً سكوتياً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت عن عمر بن عبد العزيز - وهو من خيار الخلفاء العظام - أنه كان يقيم الناس في الطرق، ويأخذ الزكاة من التجارات^(٢)، وقد قال الإمام البخاري - إمام المحدثين - في صحيحه: «باب في زكاة التجارة»^(٣)، وجعل هذا العنوان لزكاة التجارة، ولكنه لم يكن فيها حديث على شرط البخاري - لصعوبة شرط البخاري - فساق تحت هذا العنوان بسنده الصحيح عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، قال: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني التجارات.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٨٣/٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي) (٤١٤/١)، وفي الأم (٤٦/٢)، وأبو عبيد في الأموال (ص ٣٨٤)، وعبد الرزاق (٩٦/٤)، والبيهقي (٣٢٧/١)، وابن زنجويه في الأموال (٩٤١/٣) - (٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥ - ٢٣٥)، وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حماس عن أبيه، وهما مجهولان» اهـ. وانظر: تلخيص الحبير (١٨٠/٢).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (ص ١٧٠)، (٥٩٦).

(٣) في كتاب الزكاة، باب: صدقة الكسب والتجارة (٣٠٧/٣). واقتصر في هذا الباب على آية البقرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. قال الحافظ: «وكأنه أشار إلى ما رواه شعبة عن الحكم عن مجاهد في هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ قال: من التجارة الحلال» اهـ. إلى آخر ما ذكره الحافظ رحمته الله. والمقصود أن أثر مجاهد لم يورده البخاري رحمته الله وإنما ذكره الحافظ كما رأيت.

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) يعني: الثمار والحبوب، وإذا عرفنا مثلاً أن جميع العلماء يقولون بزكاة التجارات، وأنه لم يخالف في ذلك إلا من لا يعتد بهم كبعض أتباع داود كابن حزم^(١)، فجميع العلماء لا يشترطون في التجارة وجوب شيء. وخالف مالك في مشهور مذهبه، واشترط في تقويم عروض التجارة أن يصل يد التاجر نقد المال، وعبر بالمدونة بربع درهم، وشراحها يقولون: ولو أقل من ربع درهم، وهذا خالف فيه مالك جميع العلماء، حتى إن ابن حبيب من أصحابه خالفه وانضم إلى الجمهور، ولكننا نقول: إن الإمام مالكا، إنما قال هذا في وقت يكثر فيه الذهب والفضة، وينتشر فيه التجارة بالذهب والفضة، وهي أغلب الأثمان، وأن الأغلب عادة لا بد أن يصل يد مدير العروض بعض نقد المال؛ لأنه هو الذي به العمل والسعي في جميع المشتريات، ولا يكاد تاجر يسلم منه، أما لو كان مالك موجوداً في زمننا هذا - بحيث لا يوجد نقد ولا فضة ولا ذهب - فمن المستحيل أن يقول للتاجر: هذه التجارات الطائلة، والأرباح النامية سنة بعد سنة تُشترى بها العقارات والدُّور هي معفاة من الزكاة، هذا ليس بصحيح، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ونحن نقول: إنه لو فرضنا أن هنالك أقوال وزيد يقول وعمرو يقول، فسيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - علمنا تعاليم واضحة، وأنواراً نبوية ليس لنا أن نعدل عنها، وهو قوله - صلوات الله وسلامه عليه -: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٢) وقوله: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه

(١) انظر: المحلي (١١٤/٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٧/٣ - ١١٨)، والطيالسي (ص ١٦٣)، والدارمي (١٦١/٢)، وأحمد (٢٠٠/١)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب (٦٠)، حديث رقم (٢٥١٨)، (٦٦٨/٤)، والنسائي في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات. حديث رقم (٥٧١١)، (٣٢٧/٨)، والحاكم (١٣/٢)، (٩٩/٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ. وابن حبان (الإحسان ٥٢/٢)، والطبراني (٧٥/٣ - ٧٦) =

وعرضه»^(١)، والزكاة ليست بالأمر الهين؛ لأنها دعيمة من دعائم الإسلام، ومن جاءت في ذمته فويله وويله، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٥) [التوبة: ٣٤، ٣٥] والتجارات نائبة عن الذهب والفضة؛ ولذا العلماء يقومونها بالذهب والفضة، ويخرجون منها ربع العشر كزكاة الذهب والفضة.

أما الأوراق فلم تكن في زمن النبي ﷺ، ولم يرد فيها نص من كتاب ولا سنة، وعندما حدثت فالمتأخرون من العلماء اختلفت وجهات نظرهم فيها، فجماعة قالوا: هي كعروض التجارة، وقال به جماعة من متأخري المالكية والحنابلة، وهذا القول لا يظهر كل الظهور؛ لأن العرض غالباً لا بد أن تكون في ذاته منفعة مالية متمولة، وهي لا منفعة فيها، وجماعة قالوا: هي أسانيد لفلوس، وهذا أقرب إلى الحقائق؛ لأن عليها سطرًا مكتوباً فيه: إن المؤسسة الفلانية تتعهد لحامل هذا السند أن تعطيه كذا. فهي مثلاً إلى السندات أقرب، والذي وجد من هذا عن الصحابة أنهم جعلوا السند بمنزلة الشيء المكتوب فيه؛ ولذا قالوا في بيع الصكاك الذي جاء في صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك ومقصودي ببيع الصكاك:

= وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨)، وأبو يعلى (١٣٢/١٢)، من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. وصححه الألباني في الإرواء (١٥٥/٧)، غاية المرام (ص ١٣٠ - ١٣١) المشكاة (٨٤٥/٢)، صحيح الترمذي (٣٠٩/٢)، ظلال الجنة (١٧٩). وللحديث شاهد من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عند أبي يعلى (٤٧٦/١٣)، والطبراني (٢٢/٧٨)، ومن حديث أنس رضي الله عنه (موقوفاً) عند أحمد (١١٢/٣، ١٥٣)، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١٠٢/١)، وعقبه بقوله: «تفرد به عبد الله بن أبي رومان» اه. وانظر: الإرواء (١٥٦/٧).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم (٥٢)، (١/١٢٦). وأخرجه في موضع آخر برقم (٢٠٥١). ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات. حديث رقم (١٥٩٩)، (٣/١٢١٩).

أنه في أيام إمامة مروان بن الحكم على المدينة، الحكومة أعطت للناس طعاماً مكتوباً في صكوك وأوراق إلى بيت المال، فجماعة باعوا الطعام في هذه الصكوك قبل القبض، فعامة الموجودين من العلماء قالوا: لا يجوز هذا؛ لأنكم بعتم الطعام قبل قبضه^(١)، فلم يجعلوا هذه الورقة عَرَضاً، وإنما قالوا إن المدار على الشيء المكتوب فيها، وهذا أقرب الوجهين. وعلى كل حال فالذي نوصي به أنفسنا وإخواننا بتقوى الله، وأن الواحد إذا كان عنده تجارة مال من أوراق أو من غيره ينمو نمواً بعد نمو ويزداد أنه ليس من المنطق الإسلامي الرحب أن يترك الفقراء محرومين من هذا؛ لأن النبي ﷺ أوجب على الأغنياء صدقة ترد إلى الفقراء، والعلماء مطبقون على أن التجارة كذلك.

فالذي نشير به على إخواننا أن يخرجوا الزكاة، ويستبرئوا لدينهم وعرضهم، وأن لا تكون في هذه الدعيمة خصومة، قبلما لا يدرون أيتخلصون أم لا؟

الأخ سأل عن معنى هذه الآية: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾، يعني: إذا كنتم تخرجون زكاة لا تنظروا إلى رديء المال وخسيسه فتخرجونه، ولستم بأخذيه لو كان الحق لكم، لو كنتم أنتم الذين تطلبون الحق لا تقبلون ذلك الرديء و﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] تغمضوا أعينكم على القذى، يعني كارهين لذلك، فالشيء الذي لا ترضونه لأنفسكم - لو كان الحق لكم - لا ترضوه لله في حقه جل وعلا.

السؤال الرابع: ما عندكم في لزوم الصوم، أو وجوب الفطر لخبر الرجل مع اتحاد القطر؟ وما عندكم في الاستماع لقراءة القرآن [في الإذاعة]؟

الجواب: أما هذا الذي سأل عنه فضيلة الشيخ وهو: هل إذا أذيع

(١) الموطأ (ص ٤٤٣)، (١٣٣٣)، ومسلم في البيوع، باب بطلان بيع المبيع قبل القبض (١٥٢٨)، (١١٦٢/٣).

من قِبَل الحكومة أن الهلال ثبت في المحل الفلاني، هل يصام أو يفطر بهذا أو لا؟ نحن نقول: إذا حكم بثبوت شهر رمضان أو شوال حاكم بطريق شرعية، وصار الحكم من طريق قاض بطريق شرعية، ثم إن الحكومة بلَّغته عن طريق الإذاعة، أن الذي يظهر لنا أن على المسلمين أن يصوموا ويفطروا بذلك، والاستناد في هذا والدليل عليه مستند إلى شيئين:

أولهما: أن الكتاب والسنة وإجماع العلماء دل على أن الغرض الأكبر في الأخبار غايته أن يوجد شيء يغلب على الظن صدقه، وتركز إليه النفس ركوناً مزاحماً لليقين بحيث لو راجع الإنسان عقله يجزم أن هذا الأمر واقع، ولو لم تشهد به بيّنة، وقد قال سيّدي في مراقي السّعود في مباحث الأخبار^(١).

«بغالب الظنّ يدور المُعْتَبَر».

وقد صدق، ونحن نضرب لكم أمثالاً من هذا:

هذا إمام دار الهجرة النجم مالك بن أنس - رضي الله عنه وأرضاه - سئل عن رجل استنكّه فشمّ من فيه ريح الخمر، فأفتى بجلده، وأقام حداً، ولم تقم بينة عدول يشهدون أن هذا الرجل شرب خمرًا، ولكن ريح الخمر قرينة تركنُ إليها النفس، ويغلب على الظن أنه شرب الخمر، وقد أجمع المالكية - مالك وعامة أصحابه - على العمل بالتدمية^(٢) الحمراء، وإن أنكرها عليه غيره، لو وُجد رجل يتشحّط في دمه، وقال: دمي عند فلان، فإن مالكا يفتي بأن أولياءه يحلفون القسامة، ويقتلون ذلك الرجل، نفس

(١) هذا الشطر الأول من البيت، وشطره الثاني:

فَاعْتَبَرَ الْإِسْلَامَ كُلُّ مَنْ غَبَرَ

انظر: المراقبي (ص ٧١).

(٢) انظر: القرطبي (١/٤٥٧)، الأضواء (٣/٥٦٣)، العذب النمير (عند تفسير الآية رقم ٧٣ من سورة البقرة).

تقول: (لا إله إلا الله) يتجرأ مالك على إزالة رأسها عن عنقها، ولم تقم بينة؛ لأنه رأى القرينة التي تركز النفس إلى صدقها ركوناً بينا أن الإنسان إذا كان في غمرات الموت لا يكاد يكذب أبداً؛ لأنه زالت أغراضه من الدنيا، ولم يبق له سبب للكذب، وفي ذلك الوقت اللدود الكافر الخنزير يسلم ويذهب إلى الحق، هذا فرعون الذي كان يقول: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، والله يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِيهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وهذا نبي الله يوسف برأه الله بقضية عادلة من ذلك الشاهد، لم تقم فيها بينة، إلا أن النفس تركز إليها ركوناً يغلب على الظن أنه صدق، والله جاء بذلك مستحسناً له في معرض التسليم، مبرئاً به نبيه الكريم، ذلك أن امرأة العزيز لما بهتته وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، اضطر إلى الدفاع، فقال: ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وليس هنالك شهود يعلمون هو الكاذب، أو هي الكاذبة، فالشاهد قال لهم: انظروا إلى أمر تركز نفوسكم إليه يغنيكم عن البينة، انظروا قميص الرجل فإن كان مشقوقاً من الأمام فهو يصول إليها، وهي تدفعه، وإن كان مشقوقاً من الوراء فهو هارب وهي تنوشه من ورائه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٦) ﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٧) [يوسف: ٢٦، ٢٧]، محل الشاهد: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف: ٢٨]، فالزموها الجناية، وحكموا عليها، والقرآن جاء بهذا في معرض الاستحسان والتصويب، وبراءة يوسف بهذا، فتبين أن هذا الأمر الذي ركنت إليه النفس وغلب على الظن صدقه يقوم مقام البينة، وإخوته أولاد يعقوب لما جعلوا أخاهم في غيابة الجب أخذوا سخلةً فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها؛ ليكون الدّم قرينة لهم على صدقهم في أن

[يوسف] ^(١) أكله الذئب. فلما جاؤوا بالقميص عشاءً يبكون، تأمل يعقوب بالقميص فوجده ليس فيه شق، فقال: سبحان الله متى كان الذئب حليماً كيّساً يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟! وعلم بقرينة القميص أنهم كاذبون؛ ولذا قال الله عنه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ [يوسف: ١٨]، وقد أجمع علماء التفسير أنّ مستند يعقوب في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ قرينة عدم شقه القميص كما جزم به أبو عبد الله القرطبي، في تفسير هذه الآية ^(٢).

وقد أجمع العلماء عن بكرة أبيهم على أن الرجل يخطب المرأة ولم يرها قط، ويتزوجها من غير أن يراها، وإنما يسمع أن عند فلان بن فلان ابنة، فيخطبها وتزفها إليه ولائد لا يثبت بقولهن درهم ولا دينار، فقد أجمع العلماء أنّ له ميسها من غير بينة تشهد على أنّ هذه عين فلانة بنت فلان التي وقع عليها العقد؛ لأنّ قرينة الصداق والعقد تدلّ على هذا، وتقوم مقام البينة مقاماً تركز إليه النفس، ويغلب على الظن صدقه. وقد أطبق العلماء على أنّ الرجل ينزل عند القوم فيأتيه الوليد والوليدة بطعام القوم - والطعام محترم معصوم - فليس عليه أن يتثبت ويلبث إلا ببينة تشهد أنه أذن له، فيأكل لأنّ قرينة الضيافة أمورٌ تركز إليها النفس ويغلب بها على الظنّ أنها أمرٌ حقيقي. كذلك إذاعة الحكومة يحتف بها من القرائن، لا يمكن أحد أن يأخذها ويزور، والنفس تركز إليها ركوناً قوياً إن لم يكن يقيناً فهو مزاحم لليقين، أقوى من يقين شاهد أو شاهدين.

والنكته الثانية: هو أن وليّ الأمر الذي يتولى أمور الناس على الناس أن تطيعه ولا تظهر الخلاف؛ لأنّ واحداً صائماً، وواحداً غير صائم هذا شبه إظهار خلاف ونزاعات، وهذا يفت في عضد الأمة، والرمز إلى الخلاف لا ينبغي، فيجب على المسلمين جميعاً أن يكونوا منسجمين في

(١) في الأصل يعقوب وهو سبق لسان.

(٢) انظر: القرطبي (٩/١٥٠)، الأضواء (٣/٧١)، العذب النمير (تفسير الآية رقم ٩٠) من سورة الأنعام.

غاية الاتفاق، الحاكم والمحكوم تتساعد جهودهم على الخير.

أما استماع القرآن فيه^(١): فالواقع في الحقيقة أن الذي يسمع السامع في الراديو هو نفس صوت القارئ، إذا كان صوت القراءة طيبة، ولم تكن مقرونة بأمور تقتضي الاستهزاء فلا مانع، وإن كان بتمطيط لا يجوز، أو مقروءًا بحالة لا تقوم بالإجلال اللائق بالقرآن، كقولهم: «أغاني مسجلة لأم كلثوم وآيات من الذكر الحكيم»!! إذا كان فيه أشياء ليس فيها احترام للقرآن كما ينبغي، أو الحال لا تجوز، فينبغي ألا يُسمع، وإن كانت قراءة على بابها فهو صوت القارئ، لا بأس به.

السؤال الخامس: ما هو حدّ البدعة التي من ارتكبتها يعدّ مخالفاً للسنة؟

وما عندكم فيما يفعله بعض متصوفة زماننا من حركات، والكلمات التي لا تعلق لها بالصلاة، كاستدبار القبلة، والرقص والكلام بنحو: «مرّ، مرّ» مع الجزم بأن هذا كله لا يؤثر خللاً في صلاتهم زاعمين الغلبة في الحال؟

الجواب: على كل حال: حدّ البدعة هو أن يتدع الإنسان في الدين

شيئاً لم يأت في كتاب ولا سنة، ولم يأت ما يدل عليه، كل من جاء بشيء ولم يأت في كتاب الله ولا سنة نبيه منصوصاً ولا جاء فيها ما يدل عليه بوجه من الدلالات بمفهوم ومنطوق وغير ذلك، فهذا هو البدعة، أمّا ما جاء في النصوص، أو ما يدخل في عموم النصوص، أو ما يؤخذ بالاستنباط من النصوص فهذا ليس بالبدعة، ومحل البدعة أن يكون أمراً دينياً، أمّا الأمور الدنيوية فليس في المخترعات منها بدعة.

وأما الحركات في الصلاة، والأفعال المضادة للصلاة فهي حرام بإجماع المسلمين، ولا يقرها الشرع من أحد أبداً ألبتة، ولا شك أنها نزعات شيطانية «مئة في المئة» ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٣٦)

(١) يعني في الإذاعة.

[النساء: ١٢٣] فالصلاة لا يُسامح فيها أحد بأن يتكلم فيها، بل المؤمن إذا قام في الصلاة علم أنه قائم بين يدي ملك السموات والأرض يناجيه، فامتلاً قلبه نوراً، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأكبر الفحشاء والمنكر الصراخ والصعق في الصلاة، فهو نزغات شيطانية بلا خلاف، ولا يشك فيها من أعطاه الله علماً، ومن يحبذها فهو ضال؛ لأن الصلاة هذه أعظم دعائم الإسلام، والمسلم إذا وقع فيها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والكلام في أثناء الصلاة استهزاء بخالق الكون، وتمرد على نظام السماء، وعدم اهتمام بأعظم دعيمة من دعائم الإسلام، ولا يفعله إلا جاهل ينزغ فيه الشيطان، ليس هنالك علم راسخ ولا دين ثابت؛ لأن صاحب العلم الراسخ والدين الثابت كيف يتحرك ويزعق في صلاته؟ والشيطان إنما ينخسهم ويقول: هذه أحوال ووجدانيات، وكل هذا باطل، الصحابة لم يزعقوا واحداً منهم في صلاته، وكانوا كأن على رؤوسهم الطير، والنبي وهو سيد الخلق لم يتكلم في صلاته إلا بما يرضي الله بغاية الخشوع، وهذا أمر معروف لا يُسأل عنه أحد.

السؤال السادس: ما عندكم في أداء الصلاة في الطائرة الجوية إذا تيقن عدم النزول إلا بعد خروج الوقت؟

الجواب: أما أنا فقد يدخل عليّ الوقت مراراً وأنا في الطائرة، وأصلي فيها، وأرى أن الإنسان إذا دخل عليه الوقت يصلي في الحالة التي هو بها؛ لأن الله يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبَدِّلْ دِينَهُ ۚ وَاللَّهُ يَسِيرٌ سَابِقًا﴾ [التغابن: ١٦]، والنبي يقول: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(١) ولا سيما إذا كان يركع

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. حديث رقم (٧٢٨٨)، (٢٥١/١٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم (١٣٣٧)، (٩٧٥/٢)، وفي كتاب الفضائل، باب: توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، ورقمه في كتاب الفضائل (١٣٠)، (٤/١٨٣٠ - ١٨٣١).

ويسجد والقبلة يعرفها، وهذا الشائع في الناس أنه لا بد من الأرض، ويستدلون بحديث: «جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١)، وأنا لم أجد له مَقْنَعاً في كتاب الله ولا في سنّة نبيّه؛ لأن حديث: «جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» صيغته لا تقتضي عموماً بإجماع أهل اللسان العربي، وإجماع الأصوليين، ولو اقتضت العموم لما كان الماء طهوراً أبداً؛ لأننا لو حصرنا الطهور والمسجد فيه لكان الطهور محصوراً في نفس التراب، مع أن المالكية يقولون: إنها لا تطهر حدثاً ولا خبثاً ولا ترفع الحدث، وكل نصّ سيق للامتنان لا مفهوم له، ومن هنا أجمع عامة العلماء على جواز أكل القديد من الحوت، لو يَبَسَّت الحوت وجعلته قديداً بالملح لجاز أكله، والله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] فلا نقول: مفهوم اللحم الطري أن قديد الحوت لا يؤكل؛ لأنه سيق للامتنان، فلو فرضنا أنه لا بد من متصل بالأرض فالطائرة متصلة بالأكسجين، والأكسجين جرم متصل بالأرض مثل الماء، فلو أخذت قربتين، وأحدهما يملؤها رجل من الماء، والثاني يملؤها من الأكسجين لامتألت من الأكسجين قبل هذه، ولو رأيتهما مطروحتين لم تفرق بين التي من الماء والتي من الأكسجين حتى تجذبها، فهذا أخفّ، وهذا أثقل، وعلى كل حال فالمسلم حيثما كان صلى، والنبى يقول: «اتق الله حيثما كنت»، ومن تقوى الله - جل وعلا - إقامة الصلاة في وقتها^(٢).

- (١) رواه جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ كأبي هريرة وجابر وحذيفة، وأبي أمامة، وأبي ذر، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس وعلي رضي الله عنهم أجمعين. ومن هذه المرويات ما أخرجه الشيخان أو أحدهما، ومنها ما أخرجه غيرهم، وبالجملة فالحديث متواتر ولا يسع تتبع تخريجه في هذه التعليقات المختصرة.
- (٢) بعد إجابة الشيخ ﷺ على هذه الأسئلة الستة التي سأله عنها أحد المشايخ في موريتانيا ختم ذلك السائل بقوله: «وهذه الأسئلة لا بد لكم بعد الرجوع وعودتكم إلى البلاد المقدسة أن تجعلوها تأليفاً مستقلاً وترسلوها لنا» فأجابه الشيخ ﷺ بقوله: «إن شاء الله».

[السؤال السابع^(١):^(٢) عن حكمة جعل الطلاق بيد الرجل].

الجواب: (...). معنى الآية في قوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] ويبين أن الرجل زارع والمرأة مزرعة، وأن الرجل فاعل والمرأة مفعول به، هذه أمور محسوسة لا يمكن أن ينكرها إلا مكابر، ونحن نضرب لكم مثلاً حسياً في ذلك: لو أردنا أن نرغم رجلاً على امرأة لا يحبها ولا يريدتها وأراد أن يطلقها، وقلنا مجاراةً للإفرنج على سبيل الفرض: لا، لا يمكنك أن تطلقها، ولا بد أن تبقى معها!! فهذه المرأة لو أرادت أن تعلق من هذا الرجل بحمل - والحمل هو أكبر الأغراض في النكاح - فإنها إذا أرادت أن تجمعه لتعلق منه بحمل، لا ينتشر ذكره إليها ولا تقدر أن تصل منه على فائدة، وهذا أمرٌ مشاهد ملموس، بخلاف الرجل فإنه قد يُحبها وهي راغمة كارهة فتلد فارساً فيه خير البشرية جمعاء، كما قال أبو كبير الهذلي^(٣):

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مُهَبَّل
حملت به في ليلة مزوودة كرهاً، وعقد نطاقها لم يُحلل

فهذه أمور محسوسة تبين أن الرجل زارع وأن المرأة مزرعة، ولا أصدق من الله حيث يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] تُبذر فيه النطف حتى تستحصد.

وهذه المزرعة تقوم للإنسانية بأعمال وخدمات هائلة لا يوجد مثلها، فالمرأة تقوم للإنسانية بأعظم مما يقوم به الرجل.

فإذا عرفنا من القرآن ومن الأمور المحسوسة أن المرأة مزرعة وحقل

(١) السؤال السابع إلى الثامن عشر من الشريط الثالث.

(٢) نص السؤال ذهب من التسجيل وكذا صدر الإجابة. وقد أثبت السؤال أعلاه زيادة على الأصل وجعلته بين معقوفين.

(٣) ديوان تأبط شراً (ص ٨٨)، الكامل (١/١٧٥)، مغني اللبيب (٢/١٩٣)، شواهد الكشاف (ص ١٠٥).

زراعة، وأن الرجل فاعل والمرأة مفعول، والرجل زارع والمرأة مزرعة، فلو قارنا مع هذا ووجدنا رجلاً علم أن الحقل الفلاني ليس صالحاً لزراعته ثم أراد أن ينتقل إلى حقل آخر ريعه أكثر وزراعته أكبر فقلنا له: لا بد أن نرغمك على البقاء على الحقل الأول الذي لا يناسبك!! فعامّة الناس يقولون: قد ظلمتم هذا!! فهذه أمور واضحة لمن تأملها. ولكن كون المرأة تعمل فيما يناسبها وما يلائمها مما خلقها الله له، وتساعد البشرية بأكثر مساعدة بعفاف وستر وصيانة، هذا أمر يردي الشيطان ويحسد الأدميين عليه، فيقول للمرأة: جعلوك مقفولاً عليك، أنت دجاجة، أنت لست بإنسان، فلا بد أن تقومي وتدخل في ميادين الحياة والكفاح!! فإذا خرجت بقي ولدها الرضيع لا يجد من يرضعه، وولدها الفطيم لا يجد من يحفظه، وولدها المريض لا يجد من يقوم عليه، وشؤون بيتها لا تجد من يصلحها، فيضطرون إلى أن يؤجروا إنساناً يقوم مقامها، فيبقى ذلك الإنسان المسكين هو الدجاجة المحبوسة، التي فرّت هي من أن تكون مثلها، فترجع النتيجة في حافرتها.

وعلى كل حال فنحن نقول في هذا: إن جميع العقلاء مطبقون على أن الأنوثة وصف نقص جبلي خلقي طبعي، وهذا معروف في أقطار الدنيا، أنه لا تكاد امرأة أن تقاوم ذكراً، حتى إن الصفات التي هي نقص في الرجال مدح في النساء، ألا ترون مثلاً أن ضعف البنية والأركان والعظام هذا عيب في الرجال؟ وهذا من محاسن النساء الذي يجلب إليهن القلوب ويحبهن! هذا جرير وهو عربي قحّ سليم القريحة. يقول^(١):

إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً

فأثنى عليهن بالضعف، والرجل لو قيل عنه الضعف لكان ذماً؛

(١) ديوان جرير (ص ٤٥٢).

فلأجل المنافاة في الخلقه والطبيعة يكون الوصف الذي هو ذم لهذا هو بعينه مدح لهذا، وكذلك الرجل الذي لا يقدر أن يُبين في الخصام هذا عيب في الرجال، وربما كان هذا من محاسن النساء التي تجذب إليهن القلوب، هذا عبد الله بن الزميه يقول^(١):

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ببعض الأذى لم يدر كيف يُجيبُ
فلم يعتذر عذر البريء ولم تزل به سكتة حتى يقال مريب

فجعل هذا العي وعدم الإبانة في الخصام كما قال الله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] جعله من محاسنهن الذي يجلب إليهن القلوب ويُستحسن منهن، وهو نقص في الرجال.

فهذه حِكْمُ الله وأموره الشرعية الحسيّة المعقولة أن المرأة تخالف الرجل في جبلتها وطبيعتها؛ ولأجل تلك الخلافات الطبيعية اختلفا في الأحكام، فكان الرجل لقوة ذكورته وكمالها قائماً على المرأة مكلفاً بشؤونها في ميادين الحياة، وإذا المرأة لم تجد من يقوم بها فلها أن تشارك في ميادين الحياة لكن مع الصيانة والستر والعفاف؛ لأن المرأة لا يجوز لها أن تجعل نفسها مائدة للخونة، وربما كان الخائن يريد النظرة الفاجرة يحبها ويقدمها على كل شيء، كما قال أحدهم^(٢):

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعد ذاك تقومُ

فهذه العين الخائنة التي تتمنى الخيانة بالنظر إلى هذا الحد لا ينبغي للإنسان^(٣). وعلى كل حال فكل من فيه مروءة يعلم هذا، لو عرضنا على أطرف إنسان فيه مروءة وقلنا له: أتحب أن تخرج أخواتك وبناتك وزوجتك أمام الناس وأمام أعين الخونة يتمتعون بجمالهن ظلماً ومكراً

(١) ديوان مجنون ليلي (ص ٢٩)، عيون الأخبار (٣/١٠٣)، الشعر والشعراء (ص ٤٩٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أي: أن يكون كذلك.

وغدراً وجناية على الشرف والرذيلة، وجناية على المرأة؟ فكل العقلاء يقولون: لا ينبغي هذا. فيعلم من هذا أن المرأة إذا زاولت بعض الأعمال في صيانة وستر وعفاف فلا مانع، وإذا أرادت أن تزاول بعض الأعمال في تكشف وأمور لا تليق بالفضيلة، بل هي تليق بالرذيلة والانحطاط الخلقي وضياع القيم العليا والمثل العظيمة للإنسانية هذا أمر لا ينبغي.

ووجه كون الطلاق بيد الرجل هو ما بيننا من أن النساء مزارع، نصّ الله على ذلك بقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وهو مشاهد في أن آلة الازدراع مع الرجل، وأن الرجل فاعلٌ حسّاً، وأن المرأة مفعولٌ به، والرجل زارع والمرأة مزرعة، ولو أُعطي الإنسان خياره في الحقل الذي يناسب زراعته لكان أمراً معقول الحكمة، واضح المعنى عند جماعة العقلاء.

[السؤال الثامن: (١)] لو قيل إن عقد الزوجية تعاقد بين طرفين: الزوج والزوجة، والزوج دافع الصداق، فلو جعل من الناحية العقلية أن الطلاق بيد المرأة لضيعت على زوجها حقه، فيكون هذا من الناحية العقلية كذلك.

الجواب: هذا الذي أشرنا له في الآية الكريمة؛ لأن الله قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وعلل بعلمتين: أحدهما: فضل الذكر على الأنثى في الخلقة والجبلة، وهو: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] الثانية: دفع المال - كما تفضلتم - وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] (٢). وعلى كل حال الذي بيننا هذه الفروع إذا كان الرجل هو الفاعل والقائم، ولرفضنا أن نرغم الرجل على المرأة وهو لا يريد لها لم يكن في ذلك فائدة ولا نتيجة للمرأة، والمرأة: الرجل لم يأخذ منها شيئاً، وإنما مكث معها ينفقها، أعطائها صداقاً ودفع لها مدة حياته ينفقها، لم يأخذ منها شيئاً، وإن هذا الذي

(١) هذا السؤال هو أشبه بالإضافة من الشيخ عطية رَحِمَهُ اللهُ عَلَى ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) هنا مداخلة من الشيخ عطية رَحِمَهُ اللهُ حيث سأل عن ماهية الزواج وعن علاقته بالناحية الروحية والمادية. فكان جواب الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «وعلى كل حال...» إلخ.

يقول: إنما ضاع جمالها!! ضاع بالأيام والليالي، الأيام والليالي هي التي أضاعته، الرجل لم يضعه ولم يجن عليه.

عجوز تمنى أن تكون صبوية وقد قوّس العينان واحدودب الظهر
فجاءت إلى العطار تبغي شبابها ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر^(١)

الرجل ليس هو الذي جنى عليها!!

[السؤال التاسع:] أريد أن يبين الشيخ للناس أن المرأة ليست لعبة بين يدي الرجل؛ لأن يكون الرجل عادلاً مع المرأة ويعطيها حقها، ولا يجعلها لعبة أي: إذا زال الغرض فيلقبها عنه فهذا ليس من القسط وليس من الإنسانية؛ لأنكم حثيتم على قيمة الإنسان في محاضرتكم، والإسلام يعطي حقاً كثيراً للإنسانية ومن الإنسانية أن يعطى للمرأة حقها أليس كذلك؟

الجواب: على كل حال فهذه الفكرة كأنها تتسمم بفكرة أجنبية عن الإسلام نوعاً ما، ونحن نبين ونقول: إن الإسلام أحاط للمرأة جميع منافعها ولم يضع لها بمنفعة، ولم يتلاعب لها بمنفعة، أما الرجل الذي جاءها لم يجز له أن يتزوجها إلا بصدّق ومال، والمدة التي يمكث معها يجب عليه إنفاقها وكفالتها من كل شيء، وإذا زالت بكارتها وزال غرضه منها لا مانع من أن يطلقها، وليس فيه تضييع لحياتها، فكم من ثيب جميلة تُختار على آلاف الأبقار، وهذا أمر مشاهد؛ لأنها إذا كانت ذات جمال ولو عجوزة، والشاعر قال^(٢):

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها عجوزاً ومن يحب عجوزاً يفند

(١) البيتان في الكامل للمبرد (٤٠٥/١) ولفظهما:

عجوزٌ تُرَجِّي أن تكون فتيّة وقد لُعبَ الجنان واحدودب الظهر
تدسُّ إلى العطارِ سلعةً أهلها وهل يُصلحُ العطارُ ما أفسد الدهرُ

(٢) ديوان الحماسة (١٢٨/٢).

كثوب اليمان قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد

فإذا كانت جميلة لا تضرها زوال البكارة، بل كم من ثيب يتنافس فيها الخُطَّاب وتأتيها الركبان من بلد إلى بلد، وأزواج النبي - وهو سيد الخلق - واختار له أكثرهن ثيبات، لم يتزوج بكراً إلا واحدة. والله قدم الثيبات في القرآن فقال: ﴿ثَيِّبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] والمرأة زوال بكارتها لا يضرها، فكم من ثيب يُرْغَب فيها أكثر يعني من بكر، وهذا لا يُضِيع جمالها، بل يتزوجها رجل آخر ويعطيها كما شاءت، وهذا الرجل لم يضرها بشيء إلا البكارة التي أزالها فيها الصداق، والله يقول: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١]. فجعل ثمن البكارة الصداق الذي دُفِعَ لها، فهو ثمن تمام، أصلاً أخذت صداقها الكامل تعقد ما تشاء كيف تشاء، وذلك ثمن بكارتها والاستمتاع بها الذي يؤخذ؛ ولذا قال الله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٢٠) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١] فثمن بكارتها المال التي استلمته، وقد يكون تفتح منه دكاكين وتكون غنية منه إلى الأبد، وما دامت عنده هي مؤمنة حياتها، وإذا طلقها إذا كانت جميلة فجمالها يجلب لها الرجال، وإذا كانت قبيحة فعلى بختها، ودين الإسلام لم يظلمها بشيء، ولم يعمل لها إلا كفالة الحقوق والكمال على ما ينبغي، وكم من ثيب طلقها رجل وأزال بكارتها وتزوجت رجلاً أعظم منه، وكم طلقها الثاني وتزوجت أغنى من ذلك، وهذا أمر معروف مشاهد في الدنيا. والذوق الذي يقول: «إنها إذا زالت بكارتها لا يُرْغَب فيها» ذوق أفرنجي معكوس مخالف للحقائق، وكم من رجل يختار الثيب على آلاف الأبقار، وهذا مشاهد في الدنيا؛ لأنه كم من ثيب جميلة خير من ألف بكر، والبكر بعد ليلة واحدة ترجع ثيبة، فإن دين الإسلام لم يظلم المرأة بشيء، ولم يغمط لها حقاً من الحقوق، بل أعطاه حقوقها كاملة، وإزالة البكارة أخذت ثمنها صداقاً وافياً كاملاً تماماً.

كما قال^(١): «أبغض الحلال» لم يجعله كمان تمام^(٢)، يعني يُبغض في الطلاق ويأمر الرجل بهذا فقال: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] يعطف قلب الرجل على المرأة ويؤيّن البقاء معها والصبر معها والمعاشرة معها على أكمل ما يكون والمصالحة، كما قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. هذه النظرة نظرها دين الإسلام ويحض إليها تماماً، ولكن إذا انقطعت الأسباب في الرجل ولم يصبر ما نقول: رغم أنك وأنت ظلمتها!! ما هو صحيح!! أوجب لها السكنى ليرجع له غرض فيها ويأخذها مجال^(٣)، وجعل له الإقالة مرتين لتمكنه المراجعة، والنبي يقبّح لهم الطلاق فهو لا ينبغي، وفي بعض الأحاديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٤). والله يأمر على هذا يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] هذا عطف على الصبر معهن، والصبر عليهن، ومعاشرتهن وعدم الطلاق، هذا يأمر به دين الإسلام أمراً حثيثاً، ومن أعظمه آية: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] هذا تصبير من الله وتقويم على عدم الطلاق، لكن إذا انقضت حيلة الرجل وصبره لم تبق هنالك عملية لهذا إلا الفراق؛ لأنه لو لم يجعل

(١) هنا وقعت مداخلة من السائل أشار فيها إلى كون الطلاق أبغض الحلال فعقب عليه الشيخ رحمته الله بهذا التعقيب.

(٢) عبر الشيخ رحمته الله باللغة الدارجة، والمراد: أنه لم يجعله أيضاً بتلك المثابة من الكمال، أي: لم يستحسنه.

(٣) أي: يكون هناك فسحة لتحصل المراجعة.

(٤) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في كراهية الطلاق. حديث رقم (٢١٦٣) - (٢١٦٤)، (٢٢٦/٦ - ٢٢٧ عون المعبود)، وابن ماجه في الطلاق، حديث رقم (٢٠١٨)، (٦٥٠/١)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٣٢٢/٢)، وابن حبان في المجروحين (٦٤/٢)، وابن عدي في الكامل (٣٢٣/٤)، (٤٦١/٦). وانظر الكلام عليه في العلل المتناهية (١٤٩/٢)، والتلخيص (٢٠٥/٣)، كشف الخفاء (٢٨/١)، إرواء الغليل (٢٥٢، ٢٠٤٠)، وإسناده ضعيف.

الفراق هذا وسيلة كان المجتمع يقع في بلايا لا حد لها أصلاً؛ لأنها قد تكون المرأة كالغل للقلب، وتكون كالضرس الذي تُمرض صاحبها، وتكون بلية على صاحبها، فإذا لم يجد خلاصاً منها تعب وتعبت، والله يقول: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾^(١) [النساء: ١٣٠].

كما تفضل الأخ كأنه يجعله حلاً للمشاكل كالعلمية التي ما يبقى عنها شيء؛ ولذا الله لم يحبّده، ولم يرغب فيه، بل أمر بتركه والصبر على عدمه، ولكن إذا كان أمام الأمر الواقع فلا مانع. الذواقون^(٢) مذمومون شرعاً هذا ما فيه كلام.

[السؤال العاشر:] ما هو الدليل القطعي على وجوب إثبات البسملة في غير سورة النمل أو حذفها، وعلى الأول هل يجهر بها أو يسرّ؟
الجواب: إن العلماء اختلفوا في البسملة في غير سورة النمل إلى ثلاثة مذاهب:

الأول: أنها [آية]^(٣) من الفاتحة ومن كل [سورة]^(٤) ما عدا براءة.

الثاني: أنها ليست بآية في الفاتحة ولا في غيرها.

الثالث: أنها آية في الفاتحة وليست بآية في غيرها. وكل منهم يأتي بحجج وأدلة على قوله. وأظهر الأقوال: هو ما يستشهد له الأصول وهو الجمع بين هذه الأدلة بأن البسملة في الفاتحة وفي أول كل سورة آية من القرآن في بعض الحروف، كحرف قارئ أهل مكة - عبد الله بن كثير -

(١) هنا مداخلة قال فيها الشيخ عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كأن الإسلام جعل الطلاق إنما هو حل للمشاكل، لا أنه غاية لذاته» اهـ. فعقب عليه الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكلام الآتي.

(٢) هنا مداخلة من أحد الحاضرين يشير فيها إلى أن الطلاق لا يسوغ إذا كان الإنسان مذواقاً. فعقب الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالكلام الآتي.

(٣) في الأصل: «سورة» وهو سبق لسان.

(٤) في الأصل: «آية» وهو سبق لسان.

وليس بحرف في بعض القراءات، ولا إشكال في كون الحرف أو الكلمة قراءة مروية في بعض القراءات وليس بقراءة في قراءة أخرى، فقوله في سورة الحديد: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْعَنِيَّ الْحَمِيدُ﴾. ليس فيه لفظة (هو) في مصحف عثمان بن عفان الذي بقي في المدينة، وفي بعض المصاحف، كالمصاحف التي أرسلت إلى العراق فيها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١) [الحديد: ٢٤] فلفظة (هو) من القرآن العظيم في قراءة عاصم وليست من القرآن العظيم في قراءة نافع. و﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ في بعض القراءات: ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وفي بعضها: ﴿وَالزُّبُرِ﴾^(٢) [آل عمران: ١٨٤]. وفي سورة البقرة: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] بلا واو، وهي في المصاحف ما عدا المصحف الذي أرسل إلى الشام، وفي مصحف الشام: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ بِالْوَائِ وَالْوَاوِ﴾^(٣). وفي سورة الشمس في بعض المصاحف: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] بالفاء، وفي بعضها: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾^(٤) فإذا كانت الحروف تختلف بهذا الاختلاف بإبدال حرف بحرف، وحذف كلمة في قراءة وإثباتها في قراءة أخرى، فالبسمة آية في بعض هذه القراءات وليست بآية في بعضها، ولا مانع من أن يقرأها جبريل على النبي في بعض الحروف باسم أنها آية، وفي بعض الحروف يقرأ بدونها، وهذا أمر جائز، والمعروف في الأصول أنه إذا أمكن الجمع صير إليه، وهذا تُجمع به الأقاويل، واختاره غير واحد من المحققين. وأكثر العلماء يقولون: إن النبي ﷺ لم يثبت عنه الجهر بها - وإن قال بعضهم ثبت عنه - فالأكثر عدم الجهر بها. إذاً القول بالإسرار أكثر قائلًا؛ لأن النبي لو كان معهوداً عنه أنه يجهر بها دائماً لما كان في ذلك خلاف.

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (ص ٤٣٠).

(٢) السابق (ص ١٧٢).

(٣) السابق (ص ١٣٤).

(٤) السابق (ص ٤٧٤).

[السؤال الحادي عشر:] ما هو الأظهر عندكم في الأقوال المختلفة في معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١)؟

الجواب: في هذا السؤال هو أنا نقول عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] نقول: الله تعالى أعلم.

[السؤال الثاني عشر:] ما هي الحكمة في تقديم (به) في البقرة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لَعْنٌ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] وتأخيرها في غيرها؟

الجواب: الظاهر أن أقرب الحِكَمِ البلاغية فيه: هو ما يذكره بعض العلماء أنه تفنن في العبارة؛ لأن تكرير العبارة بلفظ واحد أحلى منه عند النفوس تغيير الأسلوب.

[السؤال الثالث عشر:] ما هو التوفيق بين الحصرين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥] وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

الجواب: أنه كما تفضلتم يظهر إشكال بين الحصرين في قوله في سورة الإسراء - سورة بني إسرائيل - ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فكأن استغرابهم ببعث الرسول محصور فيه هذا المنع من الهدى، وقوله في سورة الكهف: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ

(١) حديث الأحرف السبعة متواتر كما نص على ذلك جمع من الأئمة، ومن شاء الوقوف على رواياته وطرقه فليراجع على سبيل المثال: فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٣٠١ - ٣٠٧)، تفسير الطبري (١/ ٢١ - ٦٧)، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٢/ ٥٩ - ٦٣)، الإبانة عن معاني القراءات (ص ٧٨ - ٨٥)، الأحرف السبعة للداني (ص ١١ - ٢٢)، التمهيد (٧/ ٢٧٢)، مشكل الآثار (٤/ ١٨١ - ١٩٥)، شرح السنة للبعوي (٤/ ٥٠١ - ٥١٢)، المرشد الوجيز (ص ٧٧ - ٩٠)، جامع الأصول (٢/ ٤٧٧ - ٤٨٤)، فضائل القرآن لابن كثير (ص ٢٦ - ٣١)، مجمع الزوائد (٧/ ١٥٠ - ١٥٤)، كنز العمال (٢/ ٥٩١ - ٦١٠)، كتاب مناهل العرفان دراسة وتقييم (١/ ٣٥٤).

سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ﴿الكهف: ٥٥﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿قَبْلًا﴾^(١) والجواب عن هذا عند العلماء: هو اختلاف جهة الحصرين، أما الحصر في سورة بني إسرائيل فهو حصر عادي في سببه العادي، والأسباب العادية قد تتخلف بمشيئة الله - جل وعلا -؛ لأنه جرت العادة أن البشر إذا جاءهم رسول منهم استغربوا وقالوا: كيف يُرسل إلينا رجل يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق؟ وهذا كثير في القرآن كقولهم عنه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِضَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقالوا في البشر: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [التغابن: ٦]. ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ [القمر: ٢٤]. ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] فكون الناس يستغربون بعث البشر فهذا استغراب عادي ضل بسببه أكثرهم، مع أن الله بين لهم أن رسالة البشر هي معروفة، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩] أي: لا ملائكة، وقال في الرسل: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨] فهذا المانع وهو قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] واستغرابهم ببعث بشر مانع عادي، والأمور العادية قد تتخلف؛ ولذا أسلم كثير من الناس ولم يمنعهم كون المبعوث بشراً، أما المانع في قوله في سورة الكهف: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٥٥] فهو مانع حقيقي عقلي؛ لأن المعنى على أصح القولين: وما منعهم أن يؤمنوا إلا أن الله أراد بهم في سابق علمه وأزله أن يبقوا على كفرهم حتى يأتيهم أحد أمرين: أن يأتيهم الهلاك في الدنيا، أو يأتيهم العذاب قبلاً في الآخرة، وهذا الذي سبق في علم الله وإرادته لا يمكن أن يتغير، فهذا مانع حقيقي

(١) انظر: المبسوط لابن مهران (ص ٢٠٠).

لا يتخلف، وذلك مانع عادي قد يتخلف، فانفكت جهة المانعين بكون هذا عادياً وهذا عقلياً فزال الخلاف لانفكاك جهة المانعية.

[السؤال الرابع عشر:] ما معنى قوله تعالى في سورة النمل: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؟ [النحل: ٦٦].

الجواب: في هذه الآية أوجه معلومة للعلماء، من أظهرها: أن الكفار في دار الدنيا تختلف علومهم في الآخرة فمنهم مكذب ومن مصدق ومن شاك، ويوم القيامة يرون الحق عياناً ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] فيتدارك علمهم ويتلاحق ويرون الحق يقيناً بحيث لا يبقى فيه لبس ولا شك، وعند ذلك يقول الواحد منهم: هل من سبيل؟ هل من مرد؟ يا ليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا، والله يقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

[السؤال الخامس عشر:] هل يمكن عندكم الآن تصحيح ما لم يصحح من الأحاديث كما هو مذهب النووي أم لا يمكن كما هو مذهب ابن الصلاح؟

الجواب: على كل حال الظاهر أنه في هذه الأوقات ليس للمعاصرين علم جديد بالرواية إلا مأخوذاً عن من قبلهم، فلا يمكنهم التزكية ولا الجرح إلا باستناد ما سطره من قبلهم، هذا هو الذي يظهر.

[السؤال السادس عشر:] هل ما أسنده الشيخان ترجح فيه قول الأول^(١) أم قول الثاني^(٢)؟

الجواب: أما ما أسنده الشيخان وكل حديث لم يبلغ حد التواتر فله

(١) أي: النووي رَحْمَهُ اللهُ.

(٢) أي: ابن الصلاح رَحْمَهُ اللهُ.

جهتان: جهة هو منها قطعي، وجهة هو منها ظني، والواحد في الشخص له جهتان: أما من حيث وجوب العمل فهو قطعي؛ لأن ما ثبت عندنا بعدول الرواة ولو أخبار أحاد فالعمل به قطعي علينا، وأما أن نحكم بأن ذلك الأمر حق في نفس الأمر فيما بيننا وبين الله فهو من هذه الحثية ظني، ونضرب لهذا الأمثال: هذا نبينا محمد ﷺ يقول في حديث أم سلمة المتفق عليه: «إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً فكأنما أقطع له قطعة من نار»^(١) قضاء النبي قطعي أنه حق من قبيل الشرع، وهو في نفس الأمر لا يدري أيطابق الأمر أو لا يطابقه؛ ولذا يحذر من أخذه ويقول: «فكأنما أقطع له قطعة من نار» والله يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فعلياً أن نأخذ بشهادة العدلين قطعاً لنص القرآن العظيم، ولو سئلنا: أنتم جازمون بأنهما صادقان في نفس الأمر؟ لقلنا: لا؛ لأنهم غير معصومين، فهو من جهة العمل الشرعي قطعي، ومن جهة الواقع في نفس الأمر أمر ظني، ولا بأس أن يُبنى في الشرع قطعي على ظني، بل نجد في كتاب الله أن الظواهر القطعية قد تُبنى على أمور هي باطلة، وهذا جاء في كتاب الله؛ لأنه لما رمى هلال زوجته^(٢)، ورمى عويمر العجلاني زوجته^(٣)، واجتمع الجميع عند

(١) أخرجه البخاري في المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه. حديث رقم (٢٤٥٨)، (١٠٧/٥)، ومسلم في الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣)، (١٣٣٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: (ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) حديث رقم (٤٧٤٧)، (٤٤٩/٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في اللعان، حديث رقم (١٤٩٦)، (١١٣٤/٢) من حديث أنس رضي الله عنه مختصراً.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...﴾، حديث رقم (٤٧٤٥)، (٤٤٨/٨)، وانظر: حديث رقم (٤٧٤٦)، ومسلم في اللعان. حديث رقم (١٤٩٢)، (١١٢٩/٢)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقد جاء نحوه عن ابن عمر

وابن عباس رضي الله عنهما.

النبي والرجل يقول: هي زانية، وهي تقول: هو قاذف محصنة. لا شك أن أحدهما كاذب بلا شك، والنبي قال في الملاعنة: «الله يعلم أن أحدكما لكاذب» ولو لم يقلها النبي فنحن نجزم بها قطعاً. جاءت آية اللعان فحلف الرجل أيمانه، وخمّس باللعنة وصدقه الشرع، ثم حلفت المرأة أيمانها وخمست بالغضب فصدقها الشرع، ولم يلزم هذا حد ولم يلزم هذا حد، ولم تقم على واحد منهما حجة بأنه وقع في محذور، والله لما بيّن هذا بيّن أن بناء هذه الأمور الشرائع القطعية على ظواهر زائفة غير حقيقية أنه من حكمته في التشريع؛ ولذا اتبع آية اللعان بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] أي: لولا ذلك لما قبل منكم هذه التشريعات وهذه التسهيلات التي أنتم تعلمون أن بواطنها لا حقيقة لها، فنحن نعلم أن أحدهما كاذب، ونعلم أنه لو تعين كذبه لكان عليه جلد القذف، ولو تعين كذبها لكان عليها الرجم؛ لأنها زانية محصنة، وهذا ثابت، وقد سقط عنه الجلد وعنهما الرجم، وصدّقاً معاً في ظاهر حكم - باطنه نحن نعلم أن أحد الشخصين كاذب - وبهذا نعلم أن للشرع ظواهر وبواطن، وأنه قد تكون ظواهر الشرع قطعية والبواطن لا يلزم أن تكون مطابقة لما في نفس الأمر.

[السؤال السابع عشر:] هل الخلع طلاق أو فسخ؟ وما هو رأيكم في

تعدد الزوجات؟

الجواب: أن أنظار العلماء اختلفت في الخلع هل هو فسخ أو

طلاق؟ فكانت جماعة من العلماء منهم: عبد الله بن عباس، والإمام

أحمد، والشافعي يقولون: إن الخلع فسخ لا طلاق، واستدلوا بالقرآن؛

لأن الله قال: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾ ثم ذكر الخلع بعد هاتين المرتين فقال: ﴿فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أُفِدَّتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ثم جاء بالطلق الثالثة في قوله:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا نَحْلُ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وهنالك قوم آخرون قالوا: إن

الخلع طلاق، وقالوا: هذه الآية وإن استدل بها ترجمان القرآن ابن عباس

لا دليل فيها؛ لأنه لما قال: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾ ذَكَرَ جواز الخلع لا يقتضي أن الخلع طلقة ثالثة، وقد جاء في حديث مرسل حسن أن الثالثة في قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فتكون الثالثة جاءت قبل ذكر الخلع فلا دليل في الخلع.

وأنا أقول: أقرب الوجهين عندي للمعنى قول من قال: إنه طلاق؛ لأن الخلع معاوضة، وأحد المتعاضين لا يدفع إلا شيئاً يملكه، والرجل لا يملك نوعاً من الفراق للمرأة إلا الطلاق، فالذي يظهر أن عوض المال من جهة المرأة يقابله عوض مملوك للرجل من جهة الرجل، ولا يملك من ذلك شيئاً إلا الطلاق، ويستأنس لهذا بما ثبت في الصحيح في بعض روايات مخالعة ثابت بن قيس وامرأته أن النبي ﷺ قال له: «خذ الحديقة وطلقها تطليقة»^(١). فكأن هذا يستأنس له بأنه جعل الطلقة في مقابلة المال والله تعالى أعلم.

أما تعدد الزوجات فينظر فيه بنظرين: أما هو من أصله دل القرآن على إباحته، وفيه مصالح عظيمة للرجل وللمرأة وللأمة؛ لأن المرأة الواحدة تمرض وتحيض وتُنفس فتكون عاجزة عن أخصّ لوازم الزوجية بتلك الأعذار والعوائق، والغرض الأكبر من أغراض النكاح: التناسل وكثرة الأمم؛ لتقوم الأمة في وجه عدوها لتكون كلمة الله هي العليا؛ ولأن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً في أقطار [الدنيا من]^(٢) النساء؛ لأنهم أكثر تعرضاً لأسباب الموت، فلو قُصر واحد على واحدة لبقى عدد ضخم من النساء لا أزواج لهن فيضطرن لركوب الفاحشة والفاقة، فهو من قبيل الشرع منصوص في كتاب الله، وحكمه ظاهرة. أما

(١) أخرجه البخاري في الطلاق، باب الخلع، حديث رقم (٥٢٧٣)، (٣٩٥/٩).

وأطرافه في: (٥٢٧٤ - ٥٢٧٧).

(٢) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق.

هذا العرف الجاري في هذه البلاد من أنه لا يمكن أن يجمع رجل بين اثنتين من بنات القبائل من البيوت التي يشار إليها فهذا يُتكلم فيه من جهتين:

إحدهما: أن بعض الناس يقول: هذا العرف حرام وليس بجائز، وهذه شروط ليست في كتاب الله، وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط. ونحن لا نقول بهذا، بل نقول: إن المرأة إذا خطبها الخاطب تقول له: أما إجابتي إياك فهو حقي، والشرع أعطاني الاختيار إن شئت أحببتك وإن شئت لم أحببك، وأنا أحببك بشرط أن لا تتزوج علي. واقتصاره على واحدة جائز شرعاً، فهي ما اشترطت عليه إلا أمراً يجوز له، فإن رضي بهذا الشرط فهذا الشرط في كتاب الله؛ لأن الله يوجب على المسلمين الوفاء لإخوانهم المسلمين بالشروط، والله يقول: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] والألف واللام للاستغراق، ويقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ويقول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث» إلى أن قال: «وإذا وعد أخلف»^(١). فكل وعد أخذه مسلم على أخيه لم يحرم حلالاً ولم يحل حراماً فهو في كتاب الله للأمر بالوفاء بالعهود في النصوص العامة في كتاب الله وسنة نبيه، لكننا نقول: إن هذا الأمر وإن كان قد يتمشى مع الشرع فيجب على عامة الناس المعاونة على محاربتة وإزالته بالطريق الاجتماعية، وأن يزيلوا هذه الأغراض وهذه الأعراف الفاسدة؛ لأن هذا يقلل عددهم، وترك هذه السنة يقلل العدد ويترك عدداً ضخماً من نسائهم ليس في كفالة أحد، فهو وإن أجازة الشرع فالشرع فيه حسنٌ وفيه أحسن، فهذا وإن كان حسناً جائزاً فتركه أحسن منه، وعلى المسلمين أن يحاربوا هذه الفكرة محاربةً اجتماعية لكون غيرها

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق. حديث رقم (٣٣)، (٩٨/١)، وأطرافه (٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥). ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق. حديث رقم (٥٩)، (٧٨/١).

أحسن منها، وأن يتخلصوا من هذا العرف الفاسد؛ لأن الرجل إذا كان قادراً على اثنتين أو ثلاث كان ذلك فيه نفع من جهات متعددة ككثرة كفالة النساء، وصار عدد ضخم، وقلّ الطلاق الذي يضطر إليه الرجل إذا زال غرضه من هذه ليستبدل بها هذه؛ لأنه لو فُسح في هذا قل الطلاق، وكثر التناسل، وكثرت كفالة النساء، وقل الأيامي في الدنيا، فهي مصالح كثيرة جداً، فعلى المسلمين أن يلتفتوا إليها من حيث إنها أفضل وأحسن لا من حيث إنها أمر حرام، هذا الذي يظهر لنا والله تعالى أعلم.

[السؤال الثامن عشر:] ما تقولون في التزام شخص مذهباً معيناً من غير نظر إلى دليل ولا إلى قول قائل؟ وهل يستوي في هذا العوام وغيرهم أم لا؟

الجواب: أن التزام مذهب معين لم يرد به نص من كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ ولا إجماع، ومتأخروا الأصوليين من جميع المذاهب كلهم مطبقون على وجوبه، ومستندهم في ذلك تحقيق المناط. وإيضاح ذلك أنهم يعلمون أن الله يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ويرون أنه لم يبق مجتهد مستحق بأن يُستفتى فيفتي، وإذا عندهم إذا كان لم يكن في الموجودين من هو أهل للفتوى يجب تقليد بعض الذين ماتوا وهم أهل للفتوى. ثم إنهم اختاروا مذاهب الأربعة وحصل التقليد فيها دون غيرهم من فقهاء الأمصار، قالوا: لأنه لم يدون مذهب كتدوين المذاهب الأربعة فإن كلام الأئمة فيها دون ونوقش وسئلوا عن كل شيء حتى صار المتمذهب به على ثقة من أن هذه فتاوي ذلك الإمام الذي هو أهل للفتوى. قالوا: وغير المذاهب الأربعة من مذاهب الصحابة ومذاهب فقهاء الأمصار التي انقطعت أو لم تنتشر لم تكن بمثابة المذاهب الأربعة لما ذكرنا من إيضاحها وتحقيقها وتنقيحها؛ فلأجل هذا النوع من تحقيق المناط أوجبوا تقليد أحد هذه الأئمة الأربعة. والذي يظهر - والله تعالى أعلم - أنه ليس لأحد الحكم بالحصص على أنه لا يوجد من يكون أهلاً

لأن يأخذ من كتاب الله وسنة نبيه، وبالجملة فإن الاستقراء يدل على أن أصول الضلال كلها راجعة إلى أصليين: أحدهما: الإفراط، والثاني: التفريط، وأن الحق دائماً واسطة بينهما فيها التجافي عن طرف الإفراط وطرف التفريط، والعلماء ضربوا لهذا أمثلة: فمن أمثلة هذا قضية عيسى، فإن النصارى هلكوا فيه بالإفراط، واليهود هلكوا فيه بالتفريط. ومن أمثلة هذا: أعمال العبد، فإن الجبرية هلكوا فيها بالإفراط، والقدرية هلكوا فيها بالتفريط، كذلك مذاهب العلماء أفرط فيها قوم وفرط فيها آخرون، فرط فيها قوم كابن حزم وأتباعه حيث حملوا على الأئمة رضي الله عنهم وأرضاهم وعابوهم واعتقدوا أنهم مشرعون من تلقاء أنفسهم يقولون على الله ما لم يرد به دليل من كتاب ولا سنة، فهذا تفريط في الأئمة، وقوم أفرطوا في الأئمة فجعلوا يقدمون كلامهم على كلام الله ورسوله، وهذا إفراط لا يجوز، والمذهب الحق وسط بين الأمرين، أنه إن وُجد نص من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فهو مقدم على قول كل أحد، والأئمة الأربعة صح عن كل واحد منهم ما معناه أنه إن وُجد قوله يخالف كتاباً وسنة ضرب بقوله الحائط، وإن لم يوجد في المسألة نص أو وُجدت فيها نصوص ظاهرها التضارب تحتاج إلى ترجيح فطبعاً تقليد المجتهد الذي فيه أهلية الاجتهاد كمالك ونظرائه أقرب إلى الصواب.

[السؤال التاسع عشر: (١) قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [المائدة: ٥] إلى آخر الآية الكريمة، فأباح تزوج الكتابية بنص القرآن العزيز، فكيف ساغ لخليل أن يقول: «إلا الكتابية بكره». مع علمي أن المكروه من قبيل الجائز؟

الجواب: أن كراهة من كره من العلماء تزويج الكتابية مستند لآية في كتاب الله من سورة البقرة، وهو مذهب معروف عن عبد الله بن عمر؛

(١) السؤال التاسع عشر، والعشرون من الشريط الرابع.

لأن الله قال في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠] والمشركات يشمل جميع الكافرات، غلط هنا قوم وقالوا: إن الكتابيين ليسوا من المشركين!! وغرهم في ذلك ظواهر آيات من كتاب الله جاء فيها عطف الكتابي على المشرك، وظنوا أن ذلك العطف يقتضي المغايرة، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١] وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٦] وقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران: ١٨٦] فعطف المشركين على أهل الكتاب توهم بعض منهم أن الكتابيات لسن من المشركين. والحق أن الكتابيين من المشركين، وقد نص الله على أنهم من المشركين في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَؤُفَّكَوْنَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

فصرح بأنهم مشركون، فعبد الله بن عمر قال: قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ﴾ [البقرة: ٢٢١] لم ينسخه شيء، ولم يقدم عليه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] واستدل بما يقوله بعض العلماء بأن النص المُحرَّم يقدم على النص المُجيز؛ لأن ترك مباح أهون على الله من ارتكاب حرام. ولكن جماهير العلماء علموا أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وأن آية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ نازلة قطعاً بعد قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ﴾، وأن الله - جل وعلا - بين فيها هذا الأمر، والأخذ بظاهر آية البقرة هو مستند التحريم أو مستند الكراهة، وعن بعضهم

التحريم، وأما مستند الجميع فهو في آية المائدة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].

[السؤال العشرون:] قال مالك في الموطأ: (باب جواز جمع الأختين) [...] [١].

الجواب: أن الجمع بين الأختين في ملك اليمين حرام عند الأئمة الأربعة وجل فقهاء الأمصار، وأجازه داود بن علي الظاهري وأتباعه، حجة الجمهور آية من كتاب الله في سورة النساء، وهي قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] لأن المصدر المنسب من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ عطف على المضاف المحذوف في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] أي: حرم عليكم نكاح أمهاتكم، وحرم عليكم الجمع بين الأختين. والألف واللام في قوله: ﴿الْأُخْتَيْنِ﴾ هو (أل) الاستغراقية، ودخلت على اسم الجنس المشنئ، وهي تعم عند علماء الأصول، فعمت بظاهرها كل أختين سواء كانتا بعقد أو بملك يمين، هذه حجة الجمهور، وهي واضحة، واحتج داود بن علي الظاهري وأتباعه على جواز الأختين في ملك اليمين بأيتين من كتاب الله إحداهما مكررة والأخرى غير مكررة، أما الآية المكررة فهي في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]. وسورة: (سأل سائل) وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [٥] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] وقد تقرر في فن الأصول أن (ما) الموصولة من صيغ العموم، قال داود: الله - جل وعلا - نفى الملامة عمن لم يحفظ فرجه عن ملك يمينه وأطلق، وجعل العداء فيما وراء ذلك وأطلق ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [٧] وعضد

(١) باقي السؤال ذهب لانقطاع التسجيل. والذي في الموطأ (ص ٣٦٦): «ما جاء في كراهية إصابة الأختين بملك اليمين والمرأة وابتها».

داود مذهبه بأن قال: إن آية: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] في سياق العقود والأنكحة، وآية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ في سياق التسري، فلنترك تلك في محلها، ونترك هذه في محلها، وأجاب الجمهور بأن قالوا: إن بين الآيتين عمومًا وخصوصًا من وجه، والمقرر في الأصول: أن الآيتين إن كان بينهما عموم وخصوص من وجه يظهر تعارضهما في الصورة التي يجتمعان فيها ويجب الترجيح كما عقده العلامة الشنقيطي العلوي سيدي عبد الله في مراقي السعود بقوله^(١):

وإن يك العموم من وجه ظهر فالحكم بالترجيح حتمًا معتبر

والعلماء لما نظروا بين الآيتين وجدوا عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] أرجح من طرق متعددة توجب تقديمه على عموم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أحد هذه الطرق أن عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] نص في محل المدرك المقصود بالذات لإبانة هذا الحكم؛ لأن السورة - سورة النساء - والمحل هو الذي تعرض فيه القرآن لما يحل من النساء وما يحرم فصرح فيه بمنع الأختين، أما آية: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾، وآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] فلم تُسق واحدة منهما لتحريم امرأة ولا لتحليل أخرى، وإنما سيقتا لمدح المتقين فكان حفظ الفرج من جميع خصال المتقين، فاستطرد أنه لم يلزم عن الزوجة والسرية، والنص المسوق بالذات لإبانة الحكم أولى بالعمل من الذي لم يُسق لذلك.

الوجه الثاني من هذه المرجحات: أن آية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] أجمع جميع العلماء أنها ليست باقية على عمومها بالإجماع؛ لأن الأخت من الرضاع لا تحل بملك اليمين إجماعاً؛ لإجماع جميع المسلمين على أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يخصص عمومها بعموم قوله:

(١) المراقي (ص ٥٧).

﴿وَأَخَوَاتِكُمْ مِّنَ الرِّضْعَةِ﴾ [النساء: ٢٣] وموطوءة الأب لا تحل بالإجماع لإجماع المسلمين أن آية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يخصص عمومها بعموم قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] والمقرر في الأصول - على أصح الوجهين - أنه إن تعارض عامان أحدهما مُخَصَّصٌ تخصيصاً بعد تخصيص والثاني لم يرد فيه تخصيص إلا محل النزاع فالذي لم يرد فيه تخصيص أولى بالتقديم والقوة من الذي دخله تخصيص.

الثالث من هذه الأوجه أن المقرر في علم الأصول أنه إذا [...] ^(١).



(١) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، ويمكن استدراك ذلك بمراجعة كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى هذه المسألة في كتابيه (أضواء البيان ٥/٧٦٢)، و(دفع إيهام الاضطراب ص ٧٢) حيث رجح عموم ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ من خمسة أوجه.

المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| المقدمة | ٣ |
| أعضاء الوفد | ٣ |
| الدول التي زارها الوفد | ٤ |
| أهداف الوفد | ٤ |
| ما قوبل به الوفد من الحفاوة | ٤ |
| القدر الذي وصلنا عبر التسجيل الصوتي مما ألقاه الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي هذه الرحلة . | ٥ |
| توصيف محتويات الأشرطة | ٥ |
| عملنا في هذه المادة | ٧ |
| القسم الأول: (المحاضرات والكلمات) | |
| (المحاضرة الأولى) | |
| تفسير الآيات (٢١ - ٢٤) من سورة البقرة | ٩ |
| اشتمال القرآن على خيرى الدنيا والآخرة | ١١ |
| فضل سورة البقرة | ١٢ |
| التنبه على حسن ترتيب القضايا المذكورة في صدر السورة | ١٢ |
| المعنى الذي تشير إليه الحروف المقطعة | ١٣ |
| تفسير قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ | ١٣ |
| بيان وجه نفي الريب فيه مع أن أقواماً قد ارتابوا فيه | ١٣ |
| انقسام الناس بعد نزول القرآن إلى ثلاث طوائف | ١٤ |
| ما تبع هذا التقسيم من إيضاح كلمتين عليهما مدار النجاة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) | ١٧ |
| معنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ | ١٧ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ١٧ | معنى العبادة |
| ١٨ | أول أمر في المصحف، وأول نهي |
| ١٨ | تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا...﴾ |
| ١٨ | برهان الإعجاز |
| ١٩ | براهين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ |
| ٢٠ | العلامة الفارقة بين من يستحق أن يُعبد ومن لا يستحق أن يُعبد |
| ٢٠ | صيغ الأمر الدالة على الوجوب |
| ٢١ | أطوار خلق الإنسان وعجيب صنع الله فيه |
| ٢٣ | تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ |
| ٢٤ | تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ |
| ٢٤ | تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ |
| ٢٦ | براهين البعث في القرآن |
| ٣١ | القرآن هو الميزان الذي يُعرف به الحق من الباطل |
| ٣١ | شروط قبول العمل |
| ٣٣ | الاعتقاد الصحيح في آيات الصفات |

(المحاضرة الثانية)

| | |
|----|---|
| ٣٥ | اشتمال القرآن على خيري الدنيا والآخرة |
| ٣٦ | المعتقد الصحيح في آيات الصفات |
| ٣٦ | الأسس الثلاثة التي يُبنى عليها هذا الاعتقاد |
| ٣٩ | بيان الموقف الصحيح مما أنتجته الحضارة الغربية |
| ٤٠ | منهج القرآن في الحث على الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية |
| ٤١ | الخطابات الموجهة للنبي ﷺ تشمل الأمة إلا لدليل يجب الرجوع إليه |
| ٤٢ | وجه أمر النبي ﷺ بالاعتداء بالرسول وهو أفضلهم |
| ٤٣ | انتفاع النبي ﷺ بالأمور الدنيوية وإن كان الذين أنتجوها من الكافرين |
| ٤٥ | الحضارة الغربية مشتملة على منافع ومضار والموقف الصحيح في ذلك |
| ٤٦ | لا منافاة بين التمسك بالدين وبين التقدم |
| ٤٧ | جهود أعداء الإسلام في الكيد له عن طريق مناهج التعليم |

(المحاضرة الثالثة)

- الإسلام دين القوة ٤٩
- انتفاع النبي ﷺ بالمنافع الدنيوية وإن كان الذي أنتجها من الكفار ٥٠
- الإسلام لا ينافي التقدم بل يأمر به ٥١
- انعكاس الموازين لدى كثير من المسلمين حيث أخذوا مفاصد الحضارة الغربية وتركوا منافعها ٥١
- تكريم الإسلام للمرأة ٥٢
- صيانة الإسلام لشرف المرأة وعفافها ٥٢
- دور المرأة في بناء المجتمع ٥٢
- ما يلقيه شياطين الجن والإنس من الوسوس التي تحرض المرأة على الخروج من حشمتها وقرارها ٥٢
- المجالات التي يمكن للمرأة أن تعمل فيها إذا كانت محتاجة للعمل ٥٣

(المحاضرة الرابعة)

- أضواء على مسائل مهمة يكثر الغلط في تصورها ٥٥
- أولاً: الاعتقاد الصحيح في نصوص الصفات ٥٦
- الأسس الثلاثة التي يُبنى عليها الاعتقاد الصحيح في الصفات ٥٦
- أنواع الدلالة: النص، والظاهر، والمجمل، والمؤول ٦٠
- ثانياً: مفهوم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ٦١
- اشتمالها على النفي والإثبات ٦١
- كل ما أمرنا الله أن نتقرب به إليه فهو حقه الخاص ٦١
- محبة النبي ﷺ تقتضي طاعته ٦٢
- ثالثاً: الإسلام دين التقدم في جميع الميادين ٦٢
- تشويه أعداء الإسلام صورة الدين بأنه ينافي التقدم ٦٣
- الرد على هذه الدعوى ٦٣
- رابعاً: الموقف الصحيح من الحضارة الغربية ٦٤
- تجلية هذا الموقف بطريق السبر والتقسيم ٦٥
- مبنى هذا الدليل على أمرين ٦٥

الموضوع الصفحة

- ٦٥ استعمال أهل الأصول، وأهل المنطق، وأهل الجدل لهذا الدليل
- ٦٥ ذكر أربعة أمثلة من ورود هذا الدليل في القرآن
- ٦٧ أثر استعمال هذا الدليل في العقائد
- ٦٨ قصة الشيخ الشامي مع الوثائق في مسألة القول بخلق القرآن
- ٦٩ قصة عبد الله بن همام السلولي مع ابن زياد
- ٧٠ اشتمال الحضارة الغربية على ما هو نافع وضار
- ٧٠ إعمال دليل السبر والتقسيم في الموقف من معطيات الحضارة الغربية
- ٧١ انتفاع النبي ﷺ بالمنافع الدنيوية وإن كان الذي أنتجها من الكافرين
- الإسلام يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية مع ذكر شواهد
- ٧٢ ذلك
- ٧٤ خامساً: بيان أن الإسلام ينظم جميع شؤون الحياة
- ٧٤ المصالح التي يدور حولها التشريع
- ٧٤ حفظ الإسلام للضرورات الست
- ٧٧ مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصليين
- ٧٧ سادساً: الرابطة الإيمانية
- ٧٧ رابطة الإيمان أقوى الروابط

(المحاضرة الخامسة)

- ٨١ الرابطة الإيمانية
- ٨٢ بيان أن رابطة الإيمان أقوى الروابط
- ٨٣ شروط قبول العمل
- القرآن يرشد المؤمنين إلى الخوف من الله، والعمل في طاعته، وعدم الأمن من
- ٨٤ مكره، وألا يركنوا إلى النسب أو القرابة الصالحين مع ترك العمل

(المحاضرة السادسة)

- ٨٧ الرابطة الإيمانية
- ٨٨ بيان أن رابطة الإيمان أقوى الروابط
- ٩٠ وجوب التعاون بين المسلمين وترك التنازع
- ٩٠ الاختلاف في الاجتهاد لا يفسد الود ولا يؤثر في وحدة الصف

القسم الثاني: (السؤالات)

- السؤال الأول: في معنى الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ٩٤
- السؤال الثاني: في حكم صيد الكتابي ٩٦
- السؤال الثالث: في بعض المسائل المتعلقة بزكاة العروض والأوراق النقدية ٩٧
- السؤال الرابع: في لزوم الصوم أو الفطر لخبر الرجل مع اتحاد القطر ١٠٢
- وحكم الاستماع لقراءة القرآن في الأذاعة مع ما يث فيها من المنكرات ١٠٦
- السؤال الخامس: في ضابط البدعة ١٠٦
- وسؤال عن بعض ما يصدر عن بعض الصوفية ١٠٦
- السؤال السادس: عن حكم الصلاة في الطائرة ١٠٧
- السؤال السابع: عن حكمة جعل الطلاق بيد الرجل ١٠٩
- السؤال الثامن: متعلق بالسؤال السابق ١١٢
- السؤال التاسع: جعل الطلاق بيد الرجل هل يعني أن تكون النساء ألعوبة بيد الرجال؟ ١١٣
- السؤال العاشر: عن البسمة هل هي آية من الفاتحة أو غير ذلك، وهل يُجهر بها؟ ١١٦
- السؤال الحادي عشر: عن معنى الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن ١١٨
- السؤال الثاني عشر: عن الحكمة في تقديم (به) في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ مع تأخيرها في غير البقرة ١١٨
- السؤال الثالث عشر: عن الجمع بين الحصرين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَوَّلِينَ...﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ١١٨
- السؤال الرابع عشر: عن معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ ١٢٠
- السؤال الخامس عشر: هل يمكن للمتأخرين أن يصححوا بعض الأحاديث التي ضعفها من قبلهم؟ ١٢٠
- السؤال السادس عشر: عن إفادة الحديث المخرج في الصحيحين القطع ١٢٠
- السؤال السابع عشر: عن الخلع هل هو طلاق أو فسخ والقول في تعدد الزوجات ١٢٢
- السؤال الثامن عشر: حكم التزام مذهب معين من غير نظر إلى دليل صاحب المذهب ١٢٥

- السؤال التاسع عشر: عن قول خليل من المالكية: «إلا الكتابية بكُره» مع
تصريح القرآن بجواز التزوج بها ١٢٦
- السؤال العشرون: عن حكم الجمع بين الأختين بملك اليمين ١٢٨